معجزة القرآن

١١

الشعراوي

OLIN
BP
130
.7
S29
juz 11

CORNELL UNIVERSITY LIBRARY
3 1924 059 116 370

إتحاد ملاك الفضل

برج الأطباء

باب اللوق

شارع محمد محمود

إتحاد ملاك البنا

برج المجاز

مصر الجديدة

شارع المجاز

يهنئان

العالم الإسلامى بشهر رمضان المعظم

ويقدمان

عيادات / مكاتب / شقق / محلات

بتسهيلات فى الدفع

تنفيذ :

التنمية العمرانية للإستثمار والمقاولات

سعود & وشركاه

١٩٥ ش ٢٦ يوليو أمام مسرح البالون

ت: ٣٤٦٩٦٤٣ - ٣٤٦٩٦٤٤ - ٣٤٦٩٦٤٥

محمد متولى الشعراوى

معجزة القرآن

الجزء الحادى عشر

مشاهد يوم القيامة

• العدد ٢٩٣ • ابريل ١٩٨٩ •

كتاب اليوم

أسسه

مصطفى أمين وعلي أمين

ثقافة اليوم وكل يوم

CORNELL UNIVERSITY LIBRARIES
ITHACA, N.Y.

رئيس مجلس الإدارة :

طلعت الزهيري

العدد ٢٩٣ رمضان ١٤٠٩ هـ
ابريل ١٩٨٩م
نيسان

الصحافة ت ٧٥٨٨٨٨ عشرة خطوط
تلكس دولى ٩٢٢١٥ - محلى ٩٢٢٨٢

الاشـتراكات
جمهورية مصر العربية
قيمة الاشتراك السنوى ١٢ جنيه مصرى

البريد الجوى

دول اتحاد البريد
العربى و الافريقى ١٥ دولار امريكى اوما يعادله
باقى دول العـالم واوربا
والامريكتين وآسيا واستراليا ٢٠ دولار امريكى اوما يعادله

● ويمكن قبول نصف القيمة عن ستة شهور
● ترسل القيمة إلى الاشتراكات ١٣ ش الصحافة القـاهرة ت ٧٤٨٨٤٤ (٥ خطوط)

اسعار كتاب اليوم في الخارج

									ايطاليا	٢٠٠٠	ليرة
									هولندا	٥	فلورين
المغرب	٢٠	درهم							باكستان	٣٥	روبية
لبنان	٣٥٠	ليرة							سويسرا	٤	فرنك
الأردن	٦٠٠	فلس							اليونان	١٠٠	دراخمة
العراق	١٥٠٠	فلس							النمسا	٤٠	شلن
الكويت	٧٠٠	فلس							الدنمارك	١٥	كرونات
السعودية	٧	ريالات							السويد	١٥	كرون
السودان	٤٠٠	قرش سوداني							الهند	٣٥٠	سنتا
تونس	١٤٠٠	مليما	سلطنة عمان	٧٠٠	بيسة	الإمارات	٧	درهم	كندا امريكا	٣٠٠	سنت
الجزائر	١٧٥٠	سنتيما	غزة	١١٠	سنت	قطر	٧	ريالات	البرازيل	٤٠٠	كروزيرو
سوريا	١٤٠٠	ق.س	اليمن	٦	ريالات	انجلترا	١٢٥	بنى	نيوزيلندا	٣٥٠	سنتا
الحبشة	٦٠٠	سنت	صومال جيبوتيا	٨٠	بنى	فرنسا	١٠	فرنك	لوس انجلوس	٥٠٠	سنت
البحرين	٨٥٠	فلس	السنغال	٦٠	فرنك	المانيا	٥	مارك	استراليا	٤٠٠	سنت

● الغلاف : محمد عفت

● صورة الشيخ محمد متولي الشعراوى : مصطفى حسين

من أدعية فضيلة الشيخ

محمد متولي الشعراوي

لإبطال السِّحر

اللّهم إنك قد أَقْدَرْتَ بَعض خَلقِك على السّحر والشَّر، ولكنّك احتفظتَ لِذاتِكَ بِإِذنِ الضُّر، فَأَعوذُ بما احتفظْتَ به مِمّا أقدرْتَ عَليهِ بِحَقّ قولك «وَمَاهُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ»

■ الفصل الأول ■

معنى الوجود

الله سبحانه وتعالى خلق هذا الكون بكمال صفاته .. وخلق فيه كل ما يخدم انسان .. فالانسان فى هذا الكون هو السيد .. وكل ما فى الكون يخدمه .. حتى تلك القوى التى تفوق قدرتها كل البشر مجتمعين .. لاتستطيع أن تتأبى على خدمة الانسان .. فالشمس لا تستطيع أن تشرق يوما وتغيب يوما .. أو تقترب من الأرض فتحرقها .. أو تبتعد عن الأرض فتحولها الى كتلة من جليد .. والبحار لا تستطيع أن تمنع ماءها من أن يتبخر فى طبقات الجو العليا .. فيكون سحابا يعطينا المطر والماء العذب الذى نشرب منه .. والنبات لا يستطيع أن يمنع ثمره عن الأرض فتحدث مجاعة ولا يجد الناس ما يأكلون .. والحيوان لايستطيع أن يرفض أن يذبح ليكون لحمه طعاما للانسان .. بل انك تأخذ البقرة من أمام أمها لتذبحها فلا تحاول أن تمنعك ..

إذن فالكون كله مسخر من الله لخدمة الانسان .. هذا يعطيه الماء .. وهذا يعطيه الطعام .. وهذا يعطيه اللحم .. وهذا يعطيه الصوف .. وهذا يعطيه الخشب .. كل حاجات الانسان وضعها الله سبحانه وتعالى فى هذا الكون بتسخير منه .. وكل شىء فى الكون يعود الى الله .. إذا أخذنا أى نوع من الجماد أو النبات أو الحيوان .. نجد أنه مخلوق من الله خلقا مباشرا رغم كل هذه السفسطة التى نسمعها .

الجماد مخلوق من الله ولا خلاف على ذلك .. سواء كان على سطح الأرض أو فى باطن الأرض .. والانسان لا يستطيع أن يخلق مادة من لاشىء .. ولكنه قد يستخدم المواد المخلوقة من الله بالعلم المكشوف له من الله ليصنع خليطا من المواد .. خذا الخليط كل مادة منه وجدها الانسان فى الأرض ولم يوجدها .. ونحن نتحدى العلماء أن يقولوا لنا عن مادة لا يستخدمون فيها العناصر المخلوقة من الله فى الأرض ..

فإذا جئنا الى النبات نجده كله من الله .. هذه شجرة خشب .. من أين جاءت ؟.. من غابات السويد مثلا .. ومن أين جاءت غابات السويد ؟ .. من جبل من الأشجار قام الناس بزرعه هناك .. ومن أين جاء هذا الجبل ؟ .. من الذى قبله .. والذى قبله جاء مما سبق .. ونظل هكذا حتى نصل الى الشجرة الأولى .. من أين جاءت ؟ .. أوجدها الله فى الأرض .. الطعام الذى نأكله .. من أين جاءت التفاحة

التى تمسك بها بيدك الآن ؟ .. من شجر أحضرناه من أمريكا مثلا .. ومن أين جاء هذا الشجر .. من شتلات كانت تزرع فى منطقة كذا .. ومن أين جاءت هذه الشتلات ؟ .. من أول شجرة تفاح خلقها الله فى الأرض .. إذن كل خلق نراه أمامنا الآن فيه جزء من الخلق الأول الذى أوجده الله .. ولولا هذا الجزء لا نقرض هذا الصنف من الأرض .. لأن كل شىء حى لابد أن يأخذ حياته من حياة شىء حى سبقه .. ولا توجد حياة من ميت .. إذن إذا مات الأصل انقرض الشىء .. واستمرار وجود أى شىء فى الدنيا معناه أن حلقات حياته ظلت متصلة منذ خلقه الله حتى الآن .. فكل حى يعطى من حياته للذى بعده ..

إذن هذا الوجود الكونى الذى أعده الله للانسان .. هو خلقة مستمرة من الحياة التى أوجدها الله على الأرض .. فاذا توقفت خلقة منها وماتت قبل أن تعطينا استمرارية الحياة لما بعدها انقرض الشىء .. ولذلك فان الكون الذى نعيش فيه هو خلق متجدد لله سبحانه وتعالى يخدم الانسان حتى نهاية وجود الانسان على الأرض .. وعندما تأتى الساعة يدمر هذا كله لأن مهمته قد انتهت فى الكون

■ ■ ■

أفهمه معنى حياته

بعد أن خلق الله سبحانه وتعالى هذا الكون .. وأعطاه استمرارية الحياة ليخدم الانسان فى الأرض .. خلق الله الانسان وأفهمه معنى حياته .. فالانسان موجود فى عالم الذر حتى يولد فى الحياة الدنيا .. والدنيا هى فترة اختبار لحب الانسان لله .. فالله قد جعل كل أجناس الكون مقهورة له على الطاعة لا تستطيع المعصية .. مسبحة لله إلا الإنس والجان فقد خلقهما .. وأعطاهما حرية الاختيار .. وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ على السَّمواتِ والأَرْضِ والجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وأَشْفَقْنَ مِنْهَا وحَمَلَهَا الإِنْسانُ . إِنَّهُ كان ظَلُومًا جَهُولاً ﴾ .

«الآية ٧٢ من سورة الأحزاب»

إذن فترة الحياة الدنيا هى فترة اختبار لحب الإنسان لربه الذى أعطاه كل هذه النعم ، وسخر له كل هذا الكون .. ثم وضع له منهج الحياة الذى يعطيه الحياة الطيبة على الأرض .. فقال سبحانه افعل كذا ولا تفعل كذا .. وجعل هذا المنهج ليقى الإنسان الشقاء فى الأرض .

ثم تأتى بعد ذلك حياة البرزخ التى هى بين الموت والبعث .. وهذه حياة لها قوانينها التى لا نعرف عنها

شيئا .. ولكن الإنسان فيها يرى الغيب .. فبعد أن تخمد بشرية الإنسان وتذهب عنه حرية الاختيار، ويصبح مقهورا .. تزال الغشاوة عن عينيه فيرى الغيب .. وفى هذا يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ لَقَدْ كُنْتَ فى غَفْلَةٍ من هَذا فكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصرُكَ اليَومَ حَديدٌ ﴾ .

« الآية ٢٢ من سورة ق »

وبعد حياة البرزخ يأتى البعث والحساب .. ثم الحياة الحقيقية التى أعدها الله للإنسان ليكون خالدا فيها وهى الآخرة .. وفى ذلك يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وإنَّ الدَّارَ الآخِرةَ لَهِىَ الحيَوانُ لو كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ .

« الآية ٦٤ من سورة العنكبوت »

ويقول جل جلاله :

﴿ يا أيُّها الَّذين آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لله وللرَّسُولِ إذَا دَعاكُمْ لِمَا يُحييكُمْ ﴾ .

« من الآية ٢٤ من سورة الأنفال »

إذن فالحياة عند الله هى الآخرة .. وهى خالدة .

■ ■ ■

عطاء ربوبية وعطاء ألوهية

الله حين أوجدنا وخلق لنا هذا الكون كان له عطاءان .. عطاء رُبوبيةَ لأنه رب للجميع .. فهو الذى أوجدهم ، ولابد أن يوجد لهم مقومات حياتهم .. وعطاء ألوهيةَ .. وذلك لمن يؤمن بالله .. له عطاءات الله فى ألوهيته بأن يعينه ويهديه ويمتعه فى الآخرةَ ..

عطاء الربوبيةَ الذى يشترك فيه المؤمن والكافر ينقسم إلى قسمين .. عطاءات تنفعل لك .. وعطاءات تنفعل بك .. العطاءات التى تنفعل لك هى التى تعطيك خيرها بلا مقابل منك .. أى أنك لا تبذل مجهودا لتحصل على خيرها ..

فالشمس تشرق بأشعتها على المؤمن والكافر بلا تفرقة .. والمطر ينزل على الشعوب المؤمنة والشعوب غير المؤمنة .. والقمر ينير الدنيا كلها ليلا .. والهواء يتنفسه الجميع .. كل هذا يتم بدون جهد من أحد .. فلا أحد يمكن أن يدعى أنه خلق الشمس .. أو أنه أوجد الغلاف الجوى للأرض .. أو صنع القمر والنجوم .. أو أنه يقوم بعملية البخر من البحار لينزل الماء العذب على الأرض لاستمرار الحياة .. فكل هذه الأشياء هى من صنع الله .. كلها تخدمك وتخدم حياتك بلا جهد وبلا مقابل .

نأتى بعد ذلك إلى عطاء الربوبية الثانى .. وهو أشياء تنفعل بك .. هذه الأشياء موجودة فى الأرض مطمورة فيها .. ولكنها لا تعطيك الا اذا أعطيتها الحركة ..

فالأرض تعطيك الزرع مثلا .. ولكن اذا لم تحرث الأرض وتبذر الحب لا تعطيك الأرض شيئا .. اذن فلابد هنا من عمل .. وما فى باطن الأرض كنوز .. ولكنك لن تحصل عليها الا اذا بحثت عنها ..

والرزق هنا موجود بحيث يكفى كل من يعيشون على الأرض من خلق آدم الى يوم القيامة .. ولكن الانسان بظلمه وجهله صنع المجاعات فى الأرض ..

فبينما هناك دول تلقى القمح والبن والبيض فى البحر حتى لا تنخفض أسعاره .. هناك دول أخرى تدفع للفلاح ثمن المحصول وتطلب منه ألا يزرعه لتحافظ على ما يسمونه السعر العالمى .. لو أن هذه الدول اتقت الله فى خيرات الأرض ، وعرفت أن تلك الخيرات هى للبشر جميعا .. ولا يحق لأحد أن يمنعها عن خلق الله لما حدثت مجاعة .. لأنه كلما حدث جدب فى مكان كان هناك فائض فى مكان آخر يكفيه .. ولو أن الغذاء وزع بالعدل والانسان استغل خيرات الأرض ولم يعطلها .. لكان الغذاء فى كل وقت كافيا لكل من يعيشون فوق الأرض ..

ولكن محاولات بعض البشر أن يستأثروا بخيرات الله ويمنعوها عن الآخرين ، ولو باتلافهما ، ولو بعدم زرع الأرض .. هذه المحاولات هى التى أوجدت هذا الوضع الغذائى غير المتوازن فى الكون .. ولو أن كل ناتج الأرض كان لكل البشر يوزع عليهم بالتساوى .. لما جاعت دولة واتخمت دولة أخرى .

عطاء الربوبية هذا يشترك فيه المؤمن والكافر فى الدنيا فقط .. أما فى الآخرة فهو للمؤمن وحده .. وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زينةَ الله التى أُخرجَ لِعبادِهِ والطَّيبَاتِ من الرِّزق قُلْ هِىَ للذين آمَنُوا فى الحياةِ الدُنيا خالصةً يومَ القيامةِ ، كذلكَ نفَصِّلُ الآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾

(الآية ٣٢ من سورة الاعراف)

أى أن كل الخير الذى نتمتع به فى الدنيا من فاكهة وماء عذب وملابس فاخرة وطعام مذاقه طيب .. كل هذا يشترك فيه المؤمن والكافر فى الدنيا فقط .. أما فى الآخرة فهو للمؤمن وحده .. أما الكافر فله طعام يغلى فى بطنه مصداقا لقول الحق سبحانه :

﴿ إنَّ شَجَرةَ الزَّقُومِ طَعامُ الأَثيمِ كَالْمُهلِ يَغْلِى فى البُطونِ ، كَغَلْىِ الحَميمِ ﴾

(الآيات ٤٣ و٤٤ و٤٥ و٤٦ من سورة الدخان)

أما ملابس الكافر فى الآخرة فهى من نار مصداقا لقوله تعالى :

﴿ فالذينَ كَفَرُوا قُطِّعتْ لَهُمْ ثِيابٌ من نار ﴾

(الآية ١٩ - سورة الحج)

أما شرابهم فماء مغلى يقطع الامعاء مصداقا لقوله تعالى :

﴿ فإنهمْ لآكِلُونَ مِنْهَا فمالِئُونَ منها البُطُونَ ، ثُمَّ إنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا من حَمِيمٍ ﴾

(الآيتان ٦٦ و٦٧ من سورة الصافات)

اذن فكل نعم الله التى أباحها للكافر فى الدنيا محرمة عليه فى الاخرة .. وتكون النعم خالصة للمؤمنين .. وهذا ما سنتعرض له فى الفصول القادمة .

الأشياء التى تنفعل لك فى الدنيا لا تفرق بين المؤمن والكافر .. فمن أحسن العمل أعطته الأرض ، أوفر المحصولات بصرف النظر عن كونه مؤمنا أو غير مؤمن مطيعا أو عاصيا .. لأن الله الذى استدعاه للوجود يعطيه مقومات هذا الوجود ويوفره له ولذلك من أحسن عمله بالنسبة لعطاءات الأرض أعطته الأرض أحسن النتائج ..

■ ■ ■

(الله اشهدنا عمل انفسنا)

الله سبحانه وتعالى حين استدعانا للوجود .. اخبرنا بمراحل الحياة المختلفة فقال لنا لقد كنتم فى عالم الذر واشهدتكم بأنى ربكم وخالقكم .. مصداقا لذلك بقوله تعالى :

﴿ وإذْ أخذَ رَبُّك من بَنى آدمَ من ظُهورِهِمْ ذُرِّيتهُمْ وأَشْهَدَهُمْ على أَنْفُسِهِمْ ألَسْتُ بربِّكم قالُوا بَلى شَهدنا أنْ تَقولُوا يومَ القِيَامة إنَّا كنَّا عن هذاَ غَافِلينَ ، أو تقولُوا إنمَّا أَشْرَكَ آباؤُنَا من قَبْلُ وكنَّا ذُرِيَّةً من بَعْدِهِمْ أَفتُهلِكُنَا بِماَ فَعلَ المُبْطلونَ ﴾

(الآيتان ١٧٢ و١٧٣ - سورة الاعراف)

هاتان الايتان أثارتا جدلا كبيرا بين الناس .. كيف اشهدنا الله جميعا على نفسه ؟ نقول .. أولا كلنا فينا جزىء من آدم .. لماذا .. لأن حياتى أتت من جزىء حى من أبى .. ولو أننى لم آخذ هذا الجزىء الحى ما جئت الى الحياة .. فلو أن أبى مات قبل أن يتم تلقيح بويضة أمى ما جئت الى الحياة .. وأبى أخذ من والده .. ووالده أخذ من جده .. وهكذا الى أن نصل لآدم ..

والسلسلة من آدم الى يوم القيامة هى سلسلة حياة متصلة .. كل يأخذ الحياة من أبيه .. ولو أن سلسلة الحياة هذه انقطعت ما استمرت الحياة .. فالحياة لا توجد من موت .. ولكن من حياة قبلها .. والميت لا يستطيع أن يعطى الحياة لأحد .. ولكن الحى فقط هو الذى يستطيع ان يعطى الحياة لذريته ، وأن تكون له ذرية .. والله خلق الحياة كلها دفعة واحدة ، ووضعها فى ظهر آدم .. وهى تمضى بعد ذلك بالشفرة التى أوجدت بذرة الحياة الأولى .. فتظل هذه الشفرة تبدى لنا ألوان الحياة المطمورة فيها حتى تنتهى الشفرة التى أودعها الله سبحانه وتعالى فى ظهر آدم فتنتهى الحياة .. ولذلك قيل عن الحياة أمور يبديها الله ولا يبتديها أى أنها تظهر لنا بالتدريج وتأتى لهذا الكون بالتدريج ولكن الله خلقها أزلا .

يأتى بعد ذلك كيف يمكن أن يأتى الله بهذا الخلق كلهم .. نقول إن الجزىء من الحيونات المنوية الذى يعطى التلقيح دقيق جدا .. وهذا الجزىء هو الذى يحمل الحياة من الأب الى الابن .. أما باقى ما يتم افرازه فلا قيمة له .. هذا الجزىء البالغ الدقة الذى يحمل سر الحياة .. ويضعه فى رحم الأم ليبدأ الخلق لو جمعناه بالنسبة للبشر جميعا الموجودين على ظهر الأرض فى هذه الأيام .. والذى يبلغ عددهم ثلاثة آلاف مليون نسمة ، وهو يمثل المنطقة التى قال عنها القرآن الكريم :

﴿ أَلَمْ يَكُ نُطفَةً من مَنِيٍّ يُمْنَى ﴾

(من الآية ٣٧ من سورة القيامة)

هذه النطفة التى تحتوى على حياة الانسان وخصائصه وطباعه .. لو جمعناها لملأت نصف كستبان صغير هذه المساحة الدقيقة فيها بذرة الحياة لهؤلاء الناس كلهم ثلاثة آلاف مليون نسمة .. ولك ان تقيس على ذلك البشرية كلها .. فبذرة الحياة فيها منذ عهد آدم حتى الان لا تملأ كوب ماء .

اذن فالله حين أخذ من صلب آدم ذريته كانت هذه الذرية موجودة فى الحيوانات المنوية التى فى ظهر آدم .. ولكنها موجودة فى دقة هائلة .. وكلما ارتقى الصانع زادت دقة الصناعة .. فنحن نرى أنه كلما تقدم العلم أصبحت الصناعة دقيقة .. فجهاز الراديو مثلا الذى كان يصنع فى مساحة كبيرة .. اصبح الآن يصنع فى حجم زر صغير والساعة التى كانت أجزاؤها تحتل مكانا كبيرا اصبحت الآن توضح فى فص خاتم .. وكلما تقدمنا فى العلم دقت الصناعة بل ودقت المقاييس ايضا .. فقد كنا نقيس بالمتر فاصبحنا الآن نقيس بجزء من المليمتر .. وكان أدق قياس للزمن هو الثانية ، فأصبحنا نقيس الآن على جزء من ألف من الثانية .. هذا فى علم البشر .. فما بالك بعلم الله وصنعته ؟

■ ■ ■

أول الخلق ذريته

لقد عرفنا أنه ما دام أول الخلق هو آدم .. اذن فكل ذريته خلقت مطمورة فيه .. لأنه كما قلنا لابد لسلسلة الحياة أن تستمر .. مصداقا لقوله تعالى ..

﴿ وإذْ أخذَ ربّكَ من بنى آدمَ من ظُهورهِمْ ذُرّيتَمْ ﴾

وبنو آدم هم أولاد آدم منذ الخلق الى ان تقوم الساعة ..

اذن يكون بنو آدم هم الماخوذ منهم فاين الماخوذ ؟

نقول إن المأخوذ هو الذرية وفى هذه الحالة يكون المأخوذ منه والمأخوذ قد اتحدا وهذا مستحيل .. يأتى الحديث الشريف لرسول الله صلى الله عليه وسلم ليشرح لنا ماذا حدث فيقول « إن الله مسح على ظهر آدم .. وأخرج منه الذرية المطمورة فيه ، والتى ستأتى الى الحياة حتى قيام الساعة .. وقال لهم ألست بربكم ؟ قالوا نعم . أنت ربنا سبحانك »

اذن فى هذه الحالة يكون المأخوذ منه هو آدم . والمأخوذ هو ذريته .. فكأن الله قد مسح بيده على ظهر آدم وأخرج الذرية واشهدها على نفسه .

يأتى انسان ليقول : ان هذا غير معقول .. كيف وأنا لم اخلق يشهدنى الله على نفسه ؟ نقول ان الله سبحانه

وتعالى رحمة بعقول البشر قد اوجد لهم من المشاهد ما يقرب الغيب الى أذهانهم .. كيف ؟

الله سبحانه وتعالى حين أمر ابراهيم أن يؤذن بالناس بالحج وقف ابراهيم وأذن ، ولم يكن هناك بشر حوله أى أن مشهدية ابراهيم وهو يؤذن لم تحدث الا لعدد محدود من الناس أو ربما لم يشهدها أحد على الاطلاق .. ولكن قدرة الله سبحانه وتعالى حملت هذا الأذان لنا ، ونحن فى عالم الذر وابلغته لنا .. ولذلك نجد الناس فى الحج ينطلقون وهم يرددون لبيك اللهم لبيك .. لبيك لا شريك لك لبيك .. دليل على انهم سمعوا نداء ابراهيم قبل ان يخلقوا وانطلقوا يلبون هذا النداء .. هل رأى احد من هؤلاء ابراهيم وهو يؤذن ؟ لم يره أحد من الملايين التى تحج كل عام .. ولكن هؤلاء الملايين سمعوا نداء ابراهيم واستجابوا بقدرة الله سبحانه وتعالى .. وعندما نسمع هذا النداء نعرف ان الله سبحانه وتعالى قادر على ان يلهمنا بالفطرة ويضع فينا اشياء قبل ان نخلق .. كما أشهدنا على نفسه .. فخلق كل واحد منا وهو يعرف الله بالفطرة ..

قد يقول بعض الناس ان الحج هو من اركان الاسلام الخمسة وأنه مذكور فى القرآن الكريم ومبلغ لنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم .. نقول إن الحج للكعبة كان موجودا قبل بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم .. وأن البشر كانوا يحجون للكعبة قبل ان يفرض الحج فى

الاسلام .. بل إن القبائل كلها فى الجزيرة العربية وغيرها كانت تأتى لتحج الى بيت الله الحرام كل عام .. وكانت تأتى من أماكن بعيدة .. فالحج للبيت كان فطرة ايمانية ولو أن الشيطان استغل غفلة الانسان واستطاع ان يدخل الى هذا المكان عبادة الاصنام قبل رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم الا أن الناس لم تكن تحج للاصنام .. ولكنها كانت تحج للبيب .. فالأصنام كانت موجودة فى كل مكان ولكن الحج كان للبيت وحده . وفشلت كل المحاولات البشرية التى حاولت ان تنشىء أماكن أخرى يحج اليها الناس بما فيه قصة أبرهة ملك الحبشة الذى أنشأ مكانا فخما ليحاول أن يجذب الناس اليه فلم يأت اليه أحد .. وحينئذ قرر أن يهدم الكعبة فأفناه الله وجيشه .

قد يتساءل البعض كيف يتحدث الله لنا جميعا وبأى لغة دار هذا الحديث ؟ .. ونحن سنخلق ونتحدث لغات مختلفة .. نقول ان الحديث بين الله وخلقه جميعا يتم بلغة واحدة الله قادر على ان يجعل كل خلقه يفهمونها .. وهذا ما سيحدث فى الحساب يوم القيامة .. فالله اذا تكلم استطاع ان يفهم كل خلقه وان يفهمهم .

اذن فالحق سبحانه وتعالى اخبرنا عن مراحل الحياة .. منها ما هو مشهود لنا .. ومنها ما هو غيب عنا .. ولكن مادام الله قد قال فنحن نأخذ الكلام بمنطق الايمان .. فما دام الكلام من الله ومادمنا قد آمنا به الها خالقا وقادرا .. فكل ما يقوله لنا الله نأخذه بيقين الايمان .

الذى اتعب الدنيا

الذى اتعب الدنيا ووضع الشقاء فى حياة الانسان .. أن الناس أخرجت الحياة الدنيا عن معنى وجودها .. فالحياة الدنيا هى وسيلة للآخرة هى اختبار من الله سبحانه وتعالى لعباده يأتى الجزاء عليه فى الآخرة ولكن الناس حولوا الحياة الدنيا من وسيلة الى غاية .. وكأنما وجود الانسان فى الحياة الدنيا هو الهدف من خلقه .. فأصبح كل انسان يريد ان يحصل على كل ما يستطيع فى حياته الدنيوية .. بصرف النظر عن منهج الله وعن أن الدنيا دار اختبار .. ورغم ان الله سبحانه وتعالى قد وضع فى حياتنا ان هذه الدنيا ليست هى الهدف من خلق الانسان .. فجعل الدنيا دار اغيار لا يثبت فيها الانسان على حال فالقوى اليوم قد يصبح ضعيفا غدا .. والغنى اليوم قد يصبح فقيرا غدا .. والنعمة لا تدوم لأحد .. فهى ان لم تفارق الانسان فى حياته .. فارقها الانسان بالموت .. ورغم أننا نشهد ذلك كل يوم .. الا أن الكثيرين لا يفهمون ما يحدث .. فهم يحاولون أن يحصلوا على النعم الدنيوية باى وسيلة ولو عن طريق الحرام .. وهم فى انطلاقهم الى الأخذ من الدنيا .. ينسون أن هناك حياة دائمة فى الآخرة ..

والناس لا تتنبه الى أن الحياة الدنيا لا يمكن ان تكون هى النهاية .. ذلك أننا لسنا متساوين فى حظنا منها .. ولا فى عمرنا فيها .. فهناك من يكون عمره فى الدنيا ساعة ..

وهناك من يكون عمره يوما .. وهناك من يكون عمره سنوات .. اذن فالعمر فى الدنيا ليس متساويا .

والناس لا تتنبه الى ان الجزء الذى فيه ارادة بشرية فى حياة الانسان هو الحياة الدنيا .. فالانسان ما دام موجودا على هذه الارض يعطيه الله مشيئة الاختيار .. ولكنه فى اللحظة التى يغادر فيها هذه الحياة وهو يحتضر وقبل ان يموت .. تخمد بشريته وينتهى اختياره ويصبح مقهورا .. فلا يسيطر على شىء .. وينتهى الاختيار تماما ويعود الانسان الى القهر لقدرة الله .. فكأنما الفترة الوحيدة التى للانسان فيها ذاتية أو التى يملك فيها قدرة الاختيار لا تكون الا فترة الاختيار الدنيوى .. فيكون فيها الانسان صالحا للطاعة وصالحا للمعصية .. ليتم الابتلاء أو الامتحان الذى يحدد فيه مصيره ـ إما الى الجنة ، وإما الى النار والعياذ بالله .

والناس لا تتنبه الى أنها تملك فى الدنيا مجازا وليس حقيقة فالانسان لا يملك فى الدنيا شيئا بدليل أنه عندما يموت يخرج منها صفر اليدين .. فلا يأخذ معه ماله ، ولا الأرض التى يملكها ، ولا البيت الذى يعيش فيه .. بل ان هذه الاشياء لا تمثل له أمرا نافعا فى حياة البرزخ ولا يستخدمها ولا يحتاج اليها ..

اذن فكل شىء فى الحياة الدنيا موقوت .. وهذا دليل على أنها فترة موقوتة من الحياة .. كما أن عمر الانسان فى الدنيا لا يمثل الحياة فيها .. فمن حظه من الحياة ثلاثون سنة فهذا حظه من الدنيا ومن حظه أربعون سنة

أو خمسون سنة وستون سنة فهذا حظه منها .. فلا يقول احد ان الدنيا عمرها ملايين السنين لأن الانسان لا يعيش فيها هذه الفترة الطويلة .. وانما هى اجيال تتعاقب .. كل يأخذ نصيبه ويرحل .. فلا يحاول أحد أن يربط عمر الدنيا بحياته .. بل يرتبط عمر الدنيا بمقدار ما يقضيه فيها .. اذن فهى حياة موقوته .. موقوته فى الزمن .. وموقوتة فى النعمة .. وموقوتة فى الملك .. وموقوتة فى كل شىء ..

والانسان حين يتخذ الدنيا غاية .. فانه من جهة يحاول أن يجعل لنفسه فيها ذاتية .. فبدلا من ان يتبع منهج الله الذى انزله للبشرية يحاول ان يضع هو المنهج لنفسه .. فيفسد بدلا من أن يصلح .. لماذا ؟ .. لأن لكل واحد منا غرضا يريد أن يحققه .. لذلك عندما يبدأ الانسان فى تنظيم حياته يحاول أن يحقق لنفسه أكبر الميزات .. فهو باعتقاده أن الدنيا هى الغاية .. يحاول أن يحصل فيها على اقصى ما يستطيع . لذلك تأتى القوانين معوجة ولتحقيق أغراض خاصة .. فاذا كانت القوانين توضع فى مجتمع رأسمالى فانها تكون لصالح الرأسمالية .. بحيث تضمن هذه القوانين القضاء على أى شيوعى فى المجتمع يهدد نفوذ الرأسماليين ومصالحهم .. فتكون النتيجة أن القوانين لا توضع عن عدل .. ولكن عن أغراض شخصية .. وكذلك بالنسبة للمجتمع الشيوعى فهو يضع القوانين التى تعطى كل الميزات للجنة المركزية للحزب الشيوعى .. وتقضى بلا رحمة على كل رأسمالى .

قوانين البشر

ولأن الانسان محدود العلم محدود القدرة .. فهو لا يستطيع أن يرى من المستقبل شيئا .. ولذلك يضع القوانين التى تعالج حالات ظاهرة .. ولكن ما خفى عليه لا يتنبه له .. ثم تأتى الأيام لتظهر بعض ما كان خافيا .. فنجد أن القوانين التى وضعت غير صالحة وهى محتاجة الى تعديل .

وهكذا يحدث تعديل بعد تعديل ليعالج داءات ظهرت لم يتنبه اليها .. وكان من الأجدر بالناس بدلا من أن يدخلوا فى هذه التجارب المريرة التى تسبب لهم الشقاء . أن يتنبهوا الى أن خالق هذا الكون الذى أوجده وحدد هدفه .. قد وضع له القوانين التى تصلح له .. وأن الله منزه عن كل ما فى هذا الكون .. فهو لا يحتاج لما فى يد خلقه كما يحتاج البشر لما فى أيدى بعضهم البعض .. وهو ليس له صاحبة ولا ولد .. فكلنا متساوون أمامه لأننا جميعا من خلقه .. وهو غنى عن هذا العالم لأنه خلقه بكمال صفاته دون ان يحتاج لأحد منا ..

اذن فهو سبحانه وتعالى الذى يستطيع ان يشرع .. وأن يشرع بالعدل المطلق .. وهو عليم لا يغيب عن علمه شىء .. لذلك فهو محيط بكل ظروف الكون الحالية والمستقبلة ، فلن يفاجئه شىء يقتضى تعديلا فى قوانينه .. والعجيب ان البشر يرفضون تطبيق قوانين

الدنيا فى استقبالهم لمنهج الله .. فصانع الشىء فى الدنيا هو ، الذى يضع قوانين

صيانته ومنهج عمله .. فالذى صنع التليفزيون مثلا هو الذى يقول لك كيف يعمل .. وأى القواعد تتبع لحسن تشغيله .. فاذا فسد فى التليفزيون شىء اسرعت به الى صانعه ليصلحه ويعيده الى اداء مهمته .. فاذا لم يكن الصانع موجودا فهناك وكيل عنه قد أخذ الصنعة منه .. فاذا لم يكن الوكيل موجودا لجأنا الى الكتالوج الذى أعده الصانع لنستعين به ..

ونحن صنعة الله سبحانه وتعالى .. هو الذى خلقنا وأوجدنا .. ولذلك فإنه سبحانه وتعالى هو وحده القادر على أن يضع لنا القوانين التى نؤدى بها مهمتنا على أصلح وجه .. وهو سبحانه وتعالى القادر على أن يخبرنا اذا اصابنا عطب فى حياتنا كيف نصلح هذا العطب .. ولكننا بدلا من أن نطبق قوانين الدنيا التى نعمل نحن بها على منهج الله .. فنرد كل شىء الى المنهج الذى وضعه الله لحياة الانسان .. بصفته هو المنهج الوحيد الذى تصلح به هذه الحياة .. بدلا من أن نفعل ذلك .. واذا اصابنا عطب وشقاء فى حياتنا نعود الى منهج الله لنأخذ منه الاصلاح .. بدلا من أن نفعل ذلك وهو المنطقى بالنسبة لشئوننا الدنيوية نتيجة الى غير الله .. نتجه الى البشر ليضعوا لنا قوانين حياتنا .. ونحن نعرف يقينا أن هؤلاء البشر لم يخلقونا ، وبالتالى فهم لا يعرفون اسرار النفس البشرية وخباياها .. وما يصلحها وما يفسدها ..

فلا نجنى بالاتجاه الى غير الله الا الشقاء والتعاسة .

لماذا يحدث ذلك ؟ لاننا نحسب ان لنا ذاتية فى هذا الكون .. وأننا وإن لم نخلقه فانه يخضع لنا .. ونسينا ان الكون يخضع لنا بتسخير الله وليس بارادتنا.. فالعلم الذى يكشفه لنا اللحه ننسبه لانفسنا .. والكون الذى يخضعه لنا الله ننسب اخضاعه لارادتنا .. ونقول كما قال قارون :

﴿ إنَّما أُوتيتُهُ علىٰ عِلْمٍ عندى ﴾

(من الآية ٧٨ من سورة القصص)

ولو تأمل الانسان فى جسده وليس فى الكون لعلم أنه لا يسيطر على نفسه .. فثلاثة أرباع جسد الانسان لا يخضع للانسان .. القلب يدق سواء اردت أم لم ترد .. ويقوم بمهمته وأنت نائم لاارادة لك .. وأنت مستيقظ ولك ارادة ..

فهو اذن لا يخضع لارادتك .. اذا توقف لا تستطيع ان تجعله يعمل .. واذا عمل لا تستطيع ان تجعله يتوقف .. أو أن تعطيه راحة بضع ساعات ليستريح من عناء الدق ثم يستأنف عمله مرة أخرى .. والمعدة والكبد والأمعاء والرئتان كلها لا تخضع لارادتك .. بل أنت لا تدرى عن عملها شيئا .. حتى اذا رأيت صورتها بالاشعة فانك تذهل ان كل هذا العمل يحدث فى جسمك وأنت لا تدرى عنه شيئا .

فاذا أتينا بعد ذلك الى الاعضاء التى تظهر فيها ارادة فالقدم تمشى بأمر منك ولكن بتسخير الله لها .. فانت لا تدرى ، وأنت تمشى أى العضلات تنقبض وأى العضلات تنبسط . بل انك لا تصدر امرا اراديا لهذه العضلات فتقول لها انبسطى او انقبضى .. بل هى تفعل ذلك تلقائيا بأمر الله .. وكذلك اليد أنت تحركها ظاهرا ، ولكنك لا تدرى كيف تتم هذه الحركة .. ولا ما ينفعل لها من اعصاب وعضلات .. بل أنك لا تعرف وأنت تقوم من مجلسك أى العضلات تنقبض وأيهما تنبسط وهناك عشرات العضلات والاعصاب تنفعل لتقيمك من مجلسك وأنت لا تدرى عنها شيئا .. بل ان الله اراد ان يلفتنا الى هذا .. والى اننا ليس لنا ذاتية فجعل هناك من له قدمان ولا يستطيع السير .. ومن له عينان ولا يبصر .. ومن له اذنان ولا يسمع .. ومن له لسان ولا يتكلم .. وجعلها امثلة فعلية فى الكون حتى تكون مجرد لفتة لقدرته سبحانه وتعالى .. ولا تكون عامة بين خلقه .

ورغم كل هذه الامثلة فى الحياة من زوال للنعمة .. ومغادرة للدنيا .. وعدم وجود ذاتية للانسان .. فان الانسان غفل عن معنى وجوده فى هذه الحياة .. فبدلا من أن يطبق منهج الله استعدادا لحياة خالدة قادمة .. انطلق يعتبر نفسه اصيلا فى هذا الكون .. ويعتبر ان فترة الحياة الدنيا هى الغاية من وجوده وخلقه .. فيحاول ان يغنم منها كل ما يستطيع .. مع أن ما حوله يؤكد له انه

طارىء على هذه الحياة لفترة محددة ثم يرحل .. ومع اعتقاد الانسان بأن هذه الحياة هى غايته .. نسى منهج الله الذى اوضح له معنى وجوده فى الدنيا .. وبدلا من أن يلجأ اليه ليأخذ عنه فلسفة وجوده وطريقة حياته .. انطلق ليشرع لنفسه فأفسد وجاء الشقاء فى الكون .

الى هنا نكون قد وصلنا الى نهاية الفصل الأول عن معنى الوجود .. وعرفنا أن هذا المعنى كما حدده الله .. يبين لنا أن الحياة الدنيا انما هى مرحلة قصيرة من أطوار الحياة التى نعيشها .. وان الله قبل ان يأتى بنا أشهدنا على أنفسنا ، وعرفنا أن الحياة الحقيقة هى فى الآخرة .. حيث لا تفارق الانسان المؤمن النعم ولا يفارقها .. وأن الدنيا هى طريق اختبار الذى نمر به .. وأبلغنا الله أنه وضع لنا منهجا فى حياتنا الدنيا يصلحها لنا ويقودنا الى النعيم فى الآخرة .. ولكننا بدلا من أن نفهم معنى الوجود عن الله .. أرادنا نحن أن نضع لانفسنا معنى وجودنا فاصابنا الشقاء .. على أننا لابد أن نناقش معنى الحساب الذى سنمر به .. وكيف يكون الحساب عدلا .. مع أن قدرة الله فوق اختيارنا ..

■ ■ ■

يقول الله فى حديثه القدسى .

« لا يـزالُ عبدى يتقـرَّبُ إلى بالنّوافِلِ حتى أحبَّهُ . فإذا أحببتُه كنتُ سمعَهُ الذى يسمعُ به ، وبصرَهُ الذى يبصرُ به ، ويدَهُ التى يبطش بها .

ومَنْ ذكرنى فى سِرِّه ، ذكرتُه فى سِرى ، ومَنْ ذكرنى فى مَلأ ذكرتُه فى ملأ خيرٍ منه . ومن آتانى يَمْشِى أتيتُه هَرْولةً »

■ الفصل الثانى ■

الاختيار .. والحساب

الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان فى هذا الكون .. ولم يتركه هكذا نهبا للأفكار والضياع .. بل أعطاه الدليل المادى على وجود الله سبحانه وتعالى .. ثم بعد ذلك أرسل إليه الرسل ليبلغوه المنهج .. وليعرفوه أن خالق هذا الكون وخالق الإنسان هو الله سبحانه وتعالى .. وهذه الأدلة - أدلة وجود الله - جعلها الله فى الكون من أول أيام الخلق .. ليكون العدل بين الناس ، كل الناس .

الله أوجد الإنسان فى الكون .. وأعطاه أشياء يتعرف بها على ما حوله . فعندما يولد الإنسان لا يعرف شيئا .. ولكن المعرفة تبدأ بالتدريج وكلما تقدم فى الحياة تقدم فى المعرفة .. وكلما زاد عمره عرف أكثر .

ولقد أعطى الله سبحانه وتعالى للإنسان أدوات للمعرفة نسميها الحواس .. واصطلح العلماء على أن هذه الحواس خمس : السمع والبصر والتذوق والشم واللمس .. فالأذن تسمع الأصوات .. والعين ترى الأشياء .. واللسان يتذوق .. والأنف يشم الروائح .. واللمس يعطينا معلومات عن الأشياء .. هذه هى الحواس الخمس الظاهرة كما حددها العلماء .. ولكن الإنسان فيه حواس كثيرة خفية .. لم يحددها العلم ولا نعرف من أين تأتى - فهناك مثلا الشعور بالجوع لا يخضع لأى من الحواس الخمس .. وهناك مثلا حاسة الوزن بأن تعرف إذا كان هذا الوزن ثقيلا أم خفيفا .. فأنت تنظر إلى الشىء فلا تستطيع أن تحدد بنظرك حجمه هل هو خفيف أم ثقيل .. ولكنك لابد أن ترفعه لتعرف ذلك .. هذه حاسة فى العضلات .. وهناك حاسة أخرى فى الأصابع تدلنا إذا كان الشىء سميكا أو رفيعا .. فأنت تمسك قطعتى القماش بين أصابعك فتقول هذه أرق من هذه .. وليس هذا باللمس ، ولكن بحاسة القياس .

وهناك أشياء تسمى انفعالات فى الإنسان مثل الخوف والحب والكراهية .

الإنسان عندما جاء إلى هذا الكون وجد أشياء تخدمه .. فوجد الشمس تشرق وتعطيه الدفء والضياء كل يوم .. ووجد القمر يضىء له الليل .. ووجد الأرض تنبت له الطعام .. ووجد الماء ينزل له من السماء .. هذه أشياء

بديهية لا تحتاج إلى ذكاء ، ولا إلى علم لكى تراها .. وبدهىّ أيضا أن الإنسان لا يستطيع أن يوجد هذه الأشياء لانها فوق قدراته .. كما أن الإنسان لا يستطيع أن يخلق نفسه .

إذن من أول نظرة فى الكون لابد أن تتساءل : من الصانع ؟ .. من الذى خلق ؟ .. فإذا رأينا كل شىء يسير بنظام بديع .. فالشمس تشرق لا تتأخر ثانية .. والهواء يحيط بالكون .. والمطر والزرع والنبات .. كل هذا النظام يوحى لنا أن هناك خالقا لهذا الكون .. وأنه سبحانه هو الذى أوجد هذه القوى التى تخدمنا .. وهذا تفكير بدهىّ ليس محتاجا إلى علم أو إلى تحليل .. فهذه الآيات التى نتحدث عنها ظاهرة فى الكون كله .. تلفت أنظارنا بقوة .

إذن فالتأمل المادى فى الكون .. يقودنا إلى سؤال واحد : من الذى خلق هذا الكون وأوجده ؟ .. وهذه هى مهمة العقل فى الحياة .. أن يوصلك إلى باب الإيمان .. يوصلك إلى أن هناك قوة هائلة قادرة منظمة هى التى أوجدت هذا الكون وخلقته .. ولكن ماهى هذه القوة ؟ .. وماهو اسمها ؟ .. وماذا تريد منى ؟ .. ولماذا خلقتنى وخلقت هذا الكون ؟ .. تلك قضية لا يستطيع أن يجيب عنها العقل .. وإنما لابد أن تكون هناك مرحلة تالية .. ولذلك تجد القرآن الكريم يخبرنا بأن المؤمن وغير المؤمن يعترف بأن الله هو الخالق .. فيقول تعالى :

﴿ ولَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمواتِ والأَرضَ لَيَقولُنَّ الله ﴾

(الآية ٢٥ - سورة لقمان)

وقوله سبحانه :

﴿ ولَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمواتِ والأَرضَ وسَخَّرَ الشَّمْسَ والقَمر لَيقولُنَّ الله ﴾

(الآية ٦١ - سورة العنكبوت)

وقوله جل جلاله :

﴿ ولَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ الله . فأَنى يُؤفكونَ ﴾

(الآية ٨٧ - سورة الزخرف)

لماذا يعترف حتى غير المؤمن بأن الله هو الخالق .. لان القضية أكبر من أن يدعيها أحد .. فلا أحد يجرؤ أن يدعى أنه خلق الشمس أو القمر أو الأرض .. تلك قدرة فوق قدرات البشر جميعا .. ومهما تقدم العلم فلن يصل أحد إلى هذا الادعاء .

بعد أن وصلنا بالعقل .. إلى أن هناك خالقا لهذا الكون .. وأن هذا الخالق قادر قوى عزيز .. ودليل قدرته هذا الكون الذى خلقه .. يأتى دور الرسل .

الله سبحانه وتعالى لابد فى هذه الحالة أن يرسل الرسل

ليقولوا للناس أن خالق هذا الكون هو الله .. وأن صفاته سبحانه وتعالى أنه قوى عزيز قادر رحيم .. وأنه إله واحد لا شريك له .. وأنه يطلب منكم أن تفعلوا كذا وكذا لتعبدوه وتشكروه على نعمة الحياة والخلق .

الرسل هنا جاءوا ليبلغوا الناس قضية محسومة .. وقضية لا يمكن أن يحدث فيها جدل .. القضية المحسومة أن الله سبحانه وتعالى هو خالق هذا الكون .. فالله قال أنه خلق .. ولم ينازعه سبحانه وتعالى فى هذا أحد ويدعى الخلق .. إذن فالقضية محسومة لله .. هذه قضية لا جدل فيها .. وجود الله سبحانه وتعالى وأنه موجد هذا الكون وخالقه .. الرسل جاءوا بمنهج الله افعل ولا تفعل .

ولكى يعرّف الناس بصدق هذا المنهج وأنه جاء من الله .. أيد الله رسله بمعجزات تؤكد صدق بلاغهم عن الله .. وهنا حدث الجدل فى المنهج فقد وجد ناس مترفون لا يريدون أن يقيدوا أنفسهم بمنهج عدل .. فهم يستعبدون الناس .. ويأخذون الخير كله ويتركون لهم الفتات .. وهم يعيشون حياة بذخ وترف على حساب حقوق الآخرين .. وهذا جعلهم يقفون ضد منهج الله .. لانه يساوى بينهم وبين أتباعهم .. ويسقط عنهم الميزات فيصبح السيد كالعبد .. هنا حدث الجدل ومقاومة الرسل .

■ ■ ■

قضية الألوهية
محسومة لله

ولكن منهج الله كان يحمل الدليل معه على صحته .. أولا لأنه جاء بقضية الألوهية المحسومة بالأدلة المادية .. وثانيا لأنه طلب من الناس أن يتأملوا فى خلق الله ليروا إعجازه .. فيقول سبحانه وتعالى :

﴿ أَلَمْ تَر أن الله أَنْزلَ من السَّماءِ ماءً فأَخْرَجْنَا به ثَمراتٍ مختلفًا ألوانُها ومن الجبالِ جُدَدٌ بيضٌ وحُمْرٌ مختلفٌ ألوانُها وغرابيبُ سودٌ ، ومن النَّاسِ والدَّوابِّ والأَنْعامِ مختلفٌ ألوانُه . كذلِكَ إنَّما يَخْشَى الله من عبادِهِ العُلَماءُ . إن الله عزيزٌ غفورٌ ﴾

(الآيتان ٢٧ و ٢٨ - سورة فاطر)

.. فكأن الله يلفتنا فى هاتين الآتين إلى مقومات حياة الإنسان وكيف أن الإنسان لم يوجد مقومات حياته على الأرض .. فالله أنزل من السماء الماء أو المطر .. وهذه عملية تتم بالبخر من البحار .. ثم صعود بخار الماء إلى السماء ، ثم تكثفه على هيئة سحاب .. وهذه عملية لا يقدر عليها بشر .. والزرع الذى يخرج من الأرض ثمرته الأولى

من الله .. والجبال التى تختلف ألوانها جعلها الله مخازن للمعادن المختلفة .. والدواب والأنعام والإنسان كلها من خلق الله .. ثم يقول الحق :

﴿ إنَّما يَخْشَى الله من عبادِهِ العُلَماءُ ﴾

لأن العلماء لابد أن يكونوا أشد الناس خشية لله وهم يدققون ويبحثون فى أسرار الخلق ويرون الإعجاز الالهى .. وليس ذلك فقط .. ولكن الله طلب منا أن نتأمل فى خلقه وفى آياته فى الأرض .. فقال تعالى عن الزرع مثلا :

﴿ انظُرُوا إلى ثَمَرِه إذَا أَثْمر وَينْعِهِ ﴾

(من الآية ٩٩ من سورة الأنعام)

ونظرة إلى الثمر ترينا مدى إعجاز الخلق .. فالله خلق لنا ما يؤكل كله كالتفاح .. وما يؤكل ما بداخله ولا تؤكل القشر مثل البطيخ والبرتقال .. وما يؤكل جزؤه العلوى ويترك قلبه مثل الخوخ والمشمش .. وما ينزع غلافه بسهولة مثل اليوسفى وماله غلاف صلب مثل الجوز واللوز والبندق .. وما يعصر ولا يؤكل وإنما يؤخذ ماؤه مثل الليمون .. وهكذا نرى إعجاز الخلق فى الثمر .

والحق سبحانه وتعالى حين يطلب منا أن نتأمل ذلك وننظر إليه جيدا نعرف أنها قضية حق .. لماذا ؟ .. لأن الذى يريد أن يغش لا يطلب منك أن تفحص الشىء جيدا .. بل يحاول أن يلهيك عن التأمل .. فأنت إذا دخلت محلا لتشترى قطعة قماش .. وكانت هذه القطعة فيها

عيب .. فالبائع لا يعطيها لك ويطلب منك أن تتأملها جيدا .. بل يحاول أن يبعد انتباهك عنها حتى لا ترى العيب .. ولكن إذا طلب منك البائع أن تتأملها جيدا وتفحصها مرات ومرات فلابد أن هذه القطعة من القماش جيدة الصنع ولاعيوب فيها .. فهو يحاول أن يجعلك تحس وتعرف يقينا جودتها .

والحق سبحانه وتعالى طلب منا أن نتأمل آياته فى الكون لأنها حق .. وكلما تأملناها ازددنا علما بإعجاز الله فى كونه .. إذن فكل آيات الكون دليل لايكذب على قدرة الخالق سبحانه وتعالى .

حينما جاءت الرسالات .. وجاءت معها المعجزات التى تؤيد الأنبياء .. والمنهج الذى يساوى بين الناس .. كان أول من تصدى لهذه القضية هم أصحاب النفوذ والمترفون .. لأنها تسلبهم ميزاتهم .. ولكنهم لم يكونوا يستطيعون إنكار قضية الألوهية .. لأنها قضية ثابتة بماديات الكون .. فبدأوا يبحثون عن مخرج يعطيهم القضيتين : قضية الألوهية .. وقضية الإبقاء على نفوذهم وظلمهم وطغيانهم ولم يجدوا حلا إلا أن يوجدوا هم آلهة تحل لهم قضية الإيمان ، وفى نفس الوقت تبقى لهم كل الميزات .. فبدأ الشرك باختراع آلهة لا منهج لها .. أى لا تطلب من الإنسان شيئا .. فعبدوا الشمس وعبدوا القمر والأصنام .. واخترعوا آلهة كثيرة على مدى التاريخ البشرى .. كلها ليبقى الظلم فى الأرض .. وأنشأوا لها

معابد واخترعوا لها أسماء .. وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ . وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى ﴾

(الآية ٢٣ - سورة النجم)

ولا يقولن أحد أن هذا محتاج إلى مدينة وإلى ارتقاء لم يكن موجودا عند خلق البشرية وفى قرونها الأولى .. فأمامنا آثار قدماء المصريين تعطينا ما وصل إليه الإنسان الأول من ارتقاء سريع فى الحضارة .

ولقد كان هؤلاء الناس لو أنهم تأملوا فى الكون .. لعرفوا أن ما يفعلونه هو زيف .. لانه لا الشمس ادعت أنها فعلت شيئا .. ولا الأحجار أرسلت لنا لتقول أنها خلقت شيئا .. إذن هذا كله إفك .

وجاءت الرسل بمنهج الله وهو قائم على الثواب والعقاب .. من أحسن يثاب ويدخل الجنة .. ومن أساء يعاقب ويخلد فى النار .. ولم يكن هذا غريبا لان الكون لا يمكن أن يقوم إلا على الثواب والعقاب .. وحتى الدول التى لا تؤمن بإله ، والتى تنكر قضية الدين لم تستطع أن تقيم مجتمعا دون أن يقوم على أساس الثواب والعقاب .. من يرتكب جريمة يعاقب .. ومن يفعل شيئا حسنا يثاب

عليه ،، مما يرينا أن الثواب والعقاب هو سنة الله فى كونه بالنسبة للإنسان .. فلا يمكن أن يقوم مجتمع إنسانى ويلغى الثواب والعقاب .. وما دام هناك ثواب وعقاب فهناك اختيار بشرى .. والاختيار أتاحه الله لخلقه من الإنس والجن .. فمنهج الله قائم على افعل كذا ولا تفعل كذا .. وما دام الله قد قال لك افعل فانت قادر على ألا تفعل .. وإلا ما كان للأمر معنى .. فكيف تقول للإنسان افعل وهو لا يستطيع الفعل .. وكيف تقول له لا تفعل وهو لا يستطيع عدم الفعل .. إذن فهناك اختيار بشرى لابد أن يوجد حتى تطبق سياسة الثواب والعقاب .

ماهو الاختيار
فى الدنيا

هنا يأتى سؤال .. ما هو الاختيار البشرى ؟ .. نقول إن الاختيار البشرى اختاره الإنسان وهو ما أطلق عليه القرآن الكريم : الأمانة فى قوله سبحانه وتعالى :

﴿ إنَّا عَرضْنَا الأَمَانةَ على السَّمواتِ والأَرْضِ والجِبالِ فَأَبَيْنَ أن يَحْمِلْنَهَا وأَشْفَقْنَ مِنْهَا وحَملها الإنْسانُ . إنَّه كانَ ظَلُوماً جَهُولاً ﴾

(الآية ٧٤ من سورة الأحزاب)

الأمانة هى شىء بينك وبين من ائتمنك لا يقوم عليه دليل مادى .. فان قام عليه دليل مادى كإيصال مكتوب مثلا فهو ليس أمانة .. وأنت حين تودع عند إنسان أمانة .. ساعة يأخذها يكون موقنا أنه سيردها .. ثم قد تأتيه فيمد يده إلى الأمانة ليأخذ منها على أساس الرد .. ثم تأتى ساعة الأداء فلا يستطيع أن يردها .. كذلك فعل الإنسان .. أوجد الله له هذا الكون وائتمنه عليه وجعله سيده .. وطلب منه أن يصلح فى هذا الكون ولا يفسده .. وأقل درجات الصلاح أن تبقى الشىء الصالح على صلاحه .. وأحسن منها أن تزيد صلاحه .. ولكن الإنسان بدلا من أن يحمل الأمانة ويصلح فى الكون أفسده .. فقتل أخاه ..

وركبه الطمع الدنيوى .. فأراد أن يستأثر بكل شيء لنفسه ويحبسه عن الآخرين .. ووضع نفسه مدبرا لهذا الكون ، فقطع الأشجار وأباد الحيوان .. واتخذ آلهة وهمية لتعينه على ظلمه .

وهكذا خان الإنسان الأمانة فلم يصلح فى الكون .. مع أن الله وضع له منهج الإصلاح .. وعرفه له بواسطة الرسالات التى جاءت بها الرسل .. وكان أساس هذا الإفساد أن الإنسان خلق مختارا فى بعض الأمور .

نأتى بعد ذلك إلى الاختيار فى الإنسان .. هل هو مطلق أم محدود ؟ .. نقول : ان الاختيار فى الإنسان محدود بالمنهج .. فالإنسان ليس مختارا على إطلاقه .. ولكنه مختارا فى عدد محدود من الأمور .. كيف ؟ .. هناك فى هذه الدنيا أحداث تقع منك وأحداث تقع عليك .. الأحداث التى تقع منك قد يكون لك اختيار فيها .. كأن تقوم من مكانك إلى مكان آخر .. أو تتناول طعاما معينا تختاره .. أو تختار ثيابا معينة إلى غير ذلك .. ولكن الأحداث التى تقع عليك لا اختيار لك فيها .. وهى من أقدار الله .

هب أنك تمشى فى الطريق وسقط فوق رأسك حجر .. هل لك اختيار فى هذا ؟ .. أو صدمتك سيارة ، أو سقطت بك طائرة ، أو غرقت بك سفينة .. أو فوجئت بقرار بفصلك من العمل .. أو حاولت أن تفعل شيئا فمنعت .. أو أصبت بمرض .. أو أصيب أحد أولادك بمرض .. كل هذا وغيره من الأحداث لا اختيار لك فيه .

إذن فالإنسان ليس مطلق الاختيار .. ولكنه مختار فى منهج وضعه الله له .. فجعله فى جزء من الحياة مختارا ، وفى جزء غير مختار .. تماما كما جعل فى جسدك ما لك فيه اختيار وما ليس لك فيه اختيار .. ولقد بينا ذلك وقلنا إن ميكانيكية الجسم كعمل القلب والرئتين والكبد والطحال وغيرها تتم بلا اختيار منك ، بل دون أن تشعر بها .

إذن فمنطقة الاختيار فى الإنسان محدودة وليست مطلقة .. ولكن حكمة الله شاءت أن يكون الإنسان مختارا فى المنهج الذى يتم عليه الحساب .. فأنت تستطيع أن تصلى أو لا تصلى .. تستطيع أن تتصدق بمالك وأن تبقيه .. تستطيع أن تنطق بلسانك كلمة لا إله إلا الله محمد رسول الله .. وتستطيع والعياذ بالله أن تنطق كلمة الكفر .

إذن فعدل الله شاء أن يجعلك مختارا فى كل أمور المنهج حتى يكون الحساب عدلا .. قد يقول بعض الناس ان الاختيار فى المنهج غير مطلق .. بمعنى أنه يمكن لأى إنسان أن يمنعنى من الصلاة بالقوة والقهر .. ويمكن أن يجبرنى أى إنسان على أن أنطق بكلمة الكفر بالتعذيب والايلام .. نقول إن الله قد علم ذلك فجعل الحساب على النية وليس على الفعل .. مصداقا لقوله تعالى :

﴿ مَنْ كفَر بالله من بعد إيمانِه إلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وقَلْبُه مطمئنٌ بالإيمانِ ﴾

(من الآية ١٠٦ ـ سورة النحل)

وقوله تعالى :

﴿ ولا تُكْرِهُوا فَتياتِكُمْ على البِغَاءِ إنْ أَرَدْنَ تحصُّناً لِتبتَغُوا عَرضَ الحياةِ الدُّنيا ، ومَنْ يُكرِهُّهنَّ فإن الله من بعدِ إكْراهِهِنَّ غَفورٌ رَحيمٌ ﴾

(الآية ٣٣ ـ سورة النور)

إذن الاختيار مطلق فى تطبيق منهج الله .. وإن كان الإنسان غير مختار فى أمور كثيرة من حياته كلها وجدت على القهر .

■ ■ ■

نعم .. هو بالمشيئة

نأتى بعد ذلك إلى الاختيار هل يحدث بمشيئة الله .. أى إننى إذا اخترت الطاعة أو اخترت الإثم .. ألا يكون ذلك بمشيئة الله ؟ .. نقول : إن مشيئة الله سبحانه وتعالى فيها طلاقة قدرته .. ولذلك لا يحدد مشيئة الله إلا هو .. حتى القوانين التى وضعها الله فى الكون تعلوها مشيئة الله .. ولقد رأينا ذلك فى معجزات الأنبياء .. فالنار التى تحرق سلبت منها خاصية الإحراق .. فكانت بردا وسلاما على إبراهيم .. والبحر الذى يمتلىء بالماء ومن خاصية الماء الاستطراق انشق لموسى عليه السلام .. وأصبح كجبلين بينهما أرض يابسة .

إذن فمشيئة الله فى كونه هى التى تحكم هذا الكون وقوانينه .. وهى فوق الأسباب والمسببات .. لا تحدها قيود وهى واجبة النفاذ .

الله سبحانه وتعالى شاء أن يخلق الإنسان مختارا .. ولو شاء أن يخلقه مقهورا لفعل .. مصداقا لقوله تعالى :

﴿ إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيهِمْ مِنَ السَّماءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعناقُهُمْ لها خَاضِعينَ ﴾

(الآية ٤ من سورة الشعراء)

إذن فخلق الإنسان مختارا هو من مشيئة الله سبحانه وتعالى .. والله شاء فكان الاختيار للإنسان .

وهكذا نرى أن الاختيار ليس خارجا عن مشيئة الله .. بل إن الإنسان يستمد حريته فى إفعل ولا تفعل من مشيئة الله الذى خلقه قادرا على ذلك .. والله سبحانه وتعالى لم يلق بالإنسان فى الدنيا دون أن يمر بتجربة الطاعة والمعصية حتى يتنبه ويعرف أن الشيطان الذى يزين له المعاصى يكذب عليه ويضله .. فكانت تجربة آدم وحواء التى حدثت قبل أن ينزلا إلى الأرض .. أباح لهما الله كل ثمرات الجنة التى عاشا فيها وحرم عليهما شجرة واحدة .. أى أباح الكثير وحرم أقل الكثير .

ولو نظرنا إلى منهج الله لوجدنا أنه يبيح لنا الكثير ويحرم أقل القليل .. فالنعم المباحة أضعاف أضعاف النعم المحرمة .. وحركة الإنسان المباحة أضعاف أضعاف حركة الإنسان المحرمة .

إذن فالله يعطينا الكثير ويحرم علينا أقل القليل كما حدث مع آدم وحواء فى الجنة .. والشيطان وعد آدم وحواء بأنهما إذا أكلا من الشجرة فسينالان الخلود ، ولن يموتا ، ويبقى لهما الملك لا يزول .

والإنسان فى الدنيا يبحث عن شيئين .. كيف يهرب من الموت ويطيل عمره ، وكيف يبقى النعم التى يملكها .. فلا تزول أبدا ولا تنقص بل تزداد .

وبعد أن أكل آدم وحواء من الشجرة لم يحصلا على الخلود .. ولا على الملك الذى لا يفنى .. بل ظهرت عوراتهما .. أى أنهما حصلا على السوء ولم يحصلا على

الخير .. وهذا يرينا أن الشيطان كاذب فى كل أمانيه للإنسان .. وأنه غير قادر على تحقيقها .

وهكذا بين لنا الله من التجربة التى مر بها آدم .. الامتحان الذى سنمر به فى الدنيا .. فأرانا أن المباح هو الكثير والممنوع هو القليل .. وأن هدف الشيطان هو أن يظهر عورة الإنسان .. أى يظهر ما يسىء إليه أمام الله وأمام الناس .. وأن ما يعده كذبا .. وبعد أن تحصنا بالتجربة .. شاءت إرادة الله أن ننطلق إلى الحياة لنمر بالامتحان الذى أعده الله لنا .. ولأن الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وخُلِقَ الإنْسَانُ ضَعِيفاً ﴾

(الآية ٢٨ ـ سورة النساء)

فقد شرع لنا التوبة لنتوب إليه .. وكتب على نفسه الرحمة والمغفرة .. لتبقى البشرية إلى يوم القيامة .. وأجل الجزاء للآخرة .. وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ ولَوْ يُؤاخِذُ الله النَّاسَ بما كسَبُوا ماتَرَكَ على ظَهْرِهَا من دَابَّةٍ ﴾

(الآية ٤٥ ـ سورة فاطر)

إذن فلا يقال أن طاعة أو معصية هى خارج مشيئة الله .. لأن الله شاء لنا الاختيار أولا الذى يمكننا من الطاعة أو المعصية ، ثم حصننا بتجربة لنعرف أن الشيطان

يوقعنا فى المعاصى .. وأن الله يهدينا إلى الحق .. وبعد ذلك كتب الله على نفسه أنه لا يهدى القوم الظالمين .. ولا القوم الفاسقين .. ولا القوم الكافرين .. إلى آخر ماجاء فى القرآن الكريم .. أى أن الله سبحانه وتعالى كانت مشيئته أن يعطى هداه للذين اتبعوه مصداقا لقوله تعالى :

﴿ والَّذينَ اهْتَدَوْا زادَهُمْ هُدًى ﴾

(الآية ١٧ من سورة محمد)

فمشيئة الله فى الهداية انما كتبها للذين يختارون طريق الهداية .. ولكى تكون هذه النقطة مفهومة .. فالهداية لها معنيان : هداية دلالة .. وهداية فى الإيمان .. هداية الدلالة هى للبشر جميعا .. أن يدل الله الناس كلهم على طريقه ويبلغهم منهجه .. وهداية الإيمان أن يزيدهم إيمانا .. ولذلك إذا قرأت فى القرآن الكريم قول الحق سبحانه وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم :

﴿ وإنَّك لَتَهْدِى إلى صِرَاطٍ مُسْتَقيم ﴾

(الآية ٥٢ ـ سورة الشورى)

وقوله تعالى لرسوله الكريم :

﴿ إنك لا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ ، ولكنَّ الله يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ ﴾

(الآية ٥٦ ـ سورة القصص)

يقول السطحيون : إن الله أثبت لرسوله الهداية مرة ونفاها عنه مرة .. فكيف يحدث ذلك ؟ .. ويدعون أن هذا تناقض فى القرآن الكريم .

نقول لهم لا يوجد أى تناقض .. فالله سبحانه وتعالى أثبت دلالة الهداية لرسوله صلى الله عليه وسلم .. فالرسول بمنهج الله يدل الناس كل الناس على طريق الهداية ويبينه لهم .. وفى نفس الوقت نفى هداية الإيمان عنه .. لأن هذه الهداية والزيادة فى الإيمان تأتى من الله سبحانه وتعالى .. إذن فلا تناقض .

مشيئة الله أرادت لأولئك الذين اختاروا طريق الإيمان أن يزيدهم الله إيمانا .. وشاءت أيضا أن يترك الذين اختاروا طريق الكفر فى غيهم .. وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ ومَنْ يَعْشُ عن ذِكْرِ الرَّحْمنِ نُقَيِّضْ له شَيْطَاناً فَهُوَ له قرينٌ ﴾

(الآية ٣٦ - سورة الزخرف)

أى أن مشيئة الله تترك ذلك الكافر ليستمع إلى غواية الشيطان ولا يعينه الله عليه .. فيصبح الشيطان له قرينا .. أى ملازما له فى حياته كلها .. ولقد شاءت إرادة الله بعدله ورحمته أن يجعل مفاتيح القرب منه فى يد الإنسان .. فإذا بدأ الإنسان الطاعة أعانه الله عليها .. وإذا بدأ الإنسان المعصية تركه الله لها .. ولذلك يقول الحديث القدسى : من ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ومن ذكرنى

فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منه ومن أتانى يمشى أتيته هرولة » .

وهكذا نرى أن الله قد شاء أن يضع فى يد الإنسان البداية دائما .. ولذلك فإن كلا منا هو الذى يختار الجنة أو يختار النار بعمله .. فإن أطاع أعانه الله على الطاعة .. وإن عصى تركه الله للمعصية .. فالله غنى عن العالمين .

وجه الله
ورضى الناس

على أننا لابد أن نلتفت إلى أن العمل الإيمانى .. الذى يضاعفه الله هو الذى يقصد به وجه الله ، ولا يقصد به أمور الدنيا .. وان الإيمان بالله لابد أن يسبق العمل الصالح .. فالكافر ليس له عمل عند الله لأنه لم يقصد بعمله وجه الله .. وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ هَلْ نُنبئكُمْ بالأَخْسَرينَ أَعْمالاً الذين ضَلَّ سَعْيُهُمْ فى الحيَاةِ الدّنيا وهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا . أولئكَ الذين كَفَرُوا بآياتِ ربِّهم ولقائِهِ فحَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يومَ القِيَامَةِ وَزْنًا . ذلكَ جَزاؤُهُمْ جَهنَّمُ بما كفَرُوا واتَّخذُوا آياتى وَرسُلِى هُزُواً ﴾

(الآيات ١٠٣و١٠٤و١٠٥و١٠٦ من سورة الكهف)

لذلك عندما يتساءل بعض الناس عن أولئك الذين لم يؤمنوا . ولكنهم قدموا خدمات جليلة للإنسانية .. مثل مدام كورى مكتشفة الراديوم أو غيرها ممن قدموا خدمات للبشرية .. نقول ان هؤلاء حينما عملوا لم يكن فى بالهم الله ولم يكونوا مؤمنين به .. بل كانوا يريدون أن يخدموا الإنسانية .. أو أن يعلو صيتهم فى الدنيا .. أو أن يتكسبوا من هذا الاكتشاف مكاسب مادية .. ولذلك كان جزاؤهم من صنف ما عملوا من أجله ، فخلدتهم الإنسانية ، واقيمت لهم التماثيل .. ورصدت لهم الجوائز .. وخلدت أعمالهم فى الحياة الدنيا .. فجزاهم الله من صنف ما عملوا .. ولكنهم فى الآخرة ليس له جزاء إلا النار .. لأن الله سبحانه وتعالى لم يكن فى حسابهم .

ومن البدهى والمنطقى أنك تأخذ جزاءك ممن عملت من اجله .. وهؤلاء لم يعملوا من أجل الله .. ولا آمنوا به إلها .. فمن العدل أن يأخذوا جزاءهم ممن عملوا من أجله .. سواء كان ذلك مجدا دنيويا أو غيره .

والعجيب أن هناك أعمالا فى الدنيا ظاهرها الصلاح .. ولكنها غير مقبولة من الله .. كذلك الذى يذهب بماله إلى زوجة رجل ذى نفوذ ويعطيها المال لتنفقه فى جمعية خيرية ترأسها .. ثم بعد ذلك يطلب منها أن ترجو زوجها أن يرقيه .. أو يوقع إذن الاستيراد الذى أمامه لصالح هذا الشخص .. أو أن يفرج عن بضائعه المصادرة من

الجمارك .. هل يحتسب المال الذى دفعه صدقة لوجه الله يجازى عليها يوم القيامة ؟ .. طبعا لا .. لأنها لم يقصد بها وجه الله .. وإنما قصد بها قضاء مصلحة دنيوية .. وقد تكون هذه المصلحة مما حرمه الله .. ولذلك فإن حكم هذا المال الذى أعطى زيفا باسم الصدقة هو حكم الرشوة .. وهو صدقة غير مقبولة .. كذلك الإنسان الذى يأتى الحرب ويقاتل ليقال عنه إنه متمرس فى فنون القتال .. أو أنه قيمة عسكرية نادرة .. أو أنه قائد لا يشق له غبار .. إذا استشهد فلا جزاء له عند الله .. لأنه يقاتل من أجل الله .. كذلك الذى يبنى زاوية تحت عمارة يمتلكها ليعفى من الفوائد .. أو يبنى بدون رخصة .. أو يحصل على ميزة دنيوية لا يناله ثواب من هذه الزاوية أو هذا المصلى الذى بناه .. لأنه لم يقصد به وجه الله .. وكل عمل لا يقصد به وجه الله لا يثاب عليه مصداقا لقوله تعالى :

﴿ مَنْ كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخرةِ نَزِدْ له فى حَرْثِهِ . ومَنْ كانَ يُرِيد حَرْثَ الدُّنْيَا نؤتِه منها ومالَهُ فى الآخرةِ مِنْ نَصيبٍ ﴾

(الآية ٢٠ - سورة الشورى)

وفى ذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إن أول الناس يقضى عليه يوم القيامة رجل استشهد فأتى به الله فعرفه نعمه عليه فعرفها . فقال له فما عملت فيها ؟ :

قال قاتلت فيك ياربى حتى استشهدت . قال كذبت . ولكنك قاتلت حتى يقال جرىء وقد قيل .. ثم أُمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار .. ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن فأتى به الله فعرفه نعمه فعرفها فقال فما عملت فيها . قال تعلمت العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن . قال كذبت .

ولكنك تعلمت العلم ليقال عالم . وقرأت القرآن ليقال قارىء وقد قيل . وأُمر به وكب على وجهه فألقى فى النار . ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله فأتى به الله فعرفه نعمه فعرفها . قال ما عملت فيها ؟ .

قال ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيهاإلا أنفقت فيها . قال كذبت ولكنك فعلت ذلك ليقال هو جواد وقد قيل . ثم أُمر به فسحب على وجهه فى النار .

وهكذا نرى أن أى عمل لا يقصد به وجه الله .. لا يجازى عنه الله .. فإذا ذهبت إلى حفل خيرى يجمع فيه المال .. وأعلن فى الميكروفون أن فلانا رجل البر والتقوى والمحسن الكبير قد تبرع بمبلغ كذا للخير .. فاعلم أنه لا ثواب له لأنه قصد السمعة ولم يقصد وجه الله .. وهكذا كل من يعمل وليس فى قلبه الله .. ولذلك إذا وضعت لافتة على باب زاوية أو مسجد وكتب عليها قام ببناء هذا المسجد رجل البر والتقوى فلان .. فاعلم أنه لا جزاء له فى الآخرة .. لأنه بناها للسمعة .

وقد قيل فى هذا إنه فى إحدى الغزوات شاهد الصحابة رجلا يقاتل بشجاعة وجراة نادرة .. فذهبوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .. وقالوا أرأيت يارسول الله هذا المقاتل الجرىء ؟ .. انه سيكون أسبقنا إلى الجنة .. فرد رسول الله صلى الله عليه وسلم .. بل هو من أهل النار .. وتعجب الصحابة من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم .. وكرروا السؤال .. فكان جواب رسول الله صلى الله عليه وسلم بل هو من أهل النار .. وجرح الرجل أثناء القتال فلم يتحمل الطعنة التى أصابته أمام الناس .. وكيف أنه وهو المقاتل الشجاع يجرح .. فأمسك بمقدمة سيفه ووضعها تحت ذقنه وضغط بقوة .. حتى نفذت مقدمة السيف من جمجمته فمات منتحرا .. فأسرع الصحابة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .. بعد أن انتحر هذا الفارس أمامهم .. وعرفوا أنه فى النار .. أسرعوا إلى الرسول وقالوا نشهد أنك حقا رسول الله .. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم .. لقد قاتل هذا الرجل ليقال شجاع وقد قيل .

■ ■ ■

الطـــريـق
فى أيدينـــا

إذن فالحق سبحانه وتعالى وضع فى أيدينا أن نبدأ وفى قلوبنا الله .. فإذا خطونا خطوة أعاننا بخطوات .. وإذا فعلنا حسنة ضاعفها إلى سبعمائة مثل .. وإذا أردنا التوبة والعودة إليه أعاننا على ذلك .. ولكن المهم أن نبدأ وأن يكون فى قلوبنا ذلك الإيمان الذى يدفعنا إلى الطاعة .. فإذا أصررنا على المعصية تركنا الله لما نصر عليه ولم يعنا على تجنب وسوسة الشيطان .. ولذلك فقد أعد الله سبحانه وتعالى لكل واحد من خلقه مقعدا فى النار ومكانا فى الجنة .. وفى ذلك حكمة كبرى من الله سبحانه وتعالى .. فعندما يموت الإنسان إن كان عمله صالحا يرى مقعده من الجنة ثم يرى مقعده من النار .. ليعرف كيف نجاه الله من عذاب رهيب .. وتكون فرصته بالنجاة من النار فرصة عظيمة .. لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ فَمَنْ زُحزِحَ عن النَّارِ وأُدْخِلَ الجنَّةَ فقد فَازَ ﴾

(الآية ١٨٥ من سورة آل عمران)

الفوز هنا فوزان .. النجاة من النار ولو إلى الأعراف نعمة كبرى .. دخول الجنة نعمة أخرى أكبر .

إذن فالحق حدد لنا فعل الاختيار فى الدنيا .. فهو لم يخلقنا مختارين على اطلاقنا .. ولكنه خلقنا مختارين فى المنهج وحده .. فى افعل ولا تفعل .. أما باقى حياتنا فيما يقع علينا من أحداث فنحن مقهورون فيها .. مقهورون فى المرض والصحة .. مقهورون فى القوة والضعف .. مقهورون فى كل ما يحدث لنا وليس لنا دخل فيه .. حتى أجسادنا ثلاثة أرباعها مقهورة لله .. والربع الباقى أخضعه الله لنا بتسخير منه وليس بقدرة منا .

وبعد أن بين لنا الحق سبحانه وتعالى منهجه فى الإصلاح فى الأرض طلب منا ألا نفسد فيها .. ولكننا أفسدنا لجهلنا .. فقطعنا الأشجار التى هى الرئة نتنفس بها .. وملأنا الجو بالتلوث من المصانع .. وصرفنا الكيماويات فى الأنهار فلم تعد مياهها صالحة للشرب .. واعتقدنا أننا بالعلم نستطيع أن نحسن خلق الله .. فاخترعنا المبيدات ونحن نحسب أننا نصلح فى الأرض ونقضى على الآفات .. فقضينا على الأعداء الطبيعية لهذه الآفات ، وأصبحت الآفات أشد فتكا .

ولكن أكبر مصيبة أن الانسان توهم أنه يستطيع أن ينظم هذا الكون أكثر مما نظمه الله .. فترك شرع الله وبدأ يشرع لنفسه فظلم نفسه .. وملأ الدنيا بالشقاء والآلام .. وسيطرت نزواته على هذا الكون .. فضاع منه العدل .. وامتلأ بالصراع .. والصراع فى الدنيا لا يكون بين حق وحق لأن الحق واحد .. فلا يوجد حقان .. ولكن الصراع

فى الدنيا .. إما أن يكون بين حق وباطل .. وفى هذه الحالة ينتهى سريعا ، لأن الله ينصر الحق ويزهق الباطل .. وإما أن يكون بين باطل وباطل .. وفى هذه الحالة لا يعين الله باطلا على باطل .. بل يترك الطرفين .. كلا لما يستطيع أن يعده لفنون القتال .. فيطول الصراع ويبقى فترة طويلة دون أن يستطيع أى من الطرفين أن يحقق نصرا حاسما .. وفى هذه الحالة يعانى البشر من شرور الباطل معاناة لا تنتهى .

وبذلك نكون قد وصلنا إلى أن الحساب من الله عدل .. لأنه أعطانا الحرية فى أن نطيع المنهج أو نعصاه .. فهو لا يريدنا أن نأتى إليه مقهورين .. ولكن أن نأتى إليه عن حب وود .. وقد كتب الله على نفسه أن يعيننا على طريق الإيمان مابدأناه .. وأن يلفتنا إلى قوته وقدرته حتى نتجه إليه بالتوبة .. وأعد لكل منا مكانا فى النار ومكانا فى الجنة .. وفى الآخرة يرث المؤمنون الأماكن التى أعدت للكافرين فى الجنة لو كانوا التزموا منهج الطاعة .. وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وقَالُوا : الحمدُ لله الذى صَدَقَنَا وَعْدَهُ وأَوْرَثَنَا الأَرضَ نَتَبوأُ من الجنَّةِ حيثُ نشَاءُ ، فَنِعْمَ أَجْرُ العامِلينَ ﴾

(الآية ٧٤ - سورة الزمر)

وقوله تعالى :

﴿ تِلْكَ الجنَّةُ التى نُورثُ من عِبادِنَا من كانَ تقيًّا ﴾

(الآية ٦٣ - سورة مريم)

على أننا قبل أن نتحدث عن أهل الاعراف وأهل الجنة وأهل النار والعياذ بالله نتحدث عن يوم القيامة الذى يسبق هذا كله .

■ ■ ■

■ الفصل الثالث ■

معنى يوم القيامة

الحديث عن يوم القيامة يطول ويتشعب .. فيه مشاهد تعرضنا لها فى الجزء العاشر من هذه السلسلة معجزة القرآن .. ومشاهد لم نتعرض لها .. وهموم يوم البعث الذى يبعث الناس فيه من القبور ويحاسبون .. وأول ما يخطر على البال كما قلنا .. لماذا أطلق الله سبحانه وتعالى عليه كلمة يوم .. واليوم عندنا من شروق الشمس إلى غروبها .. وهل سيكون يوما من أيامنا ؟ .. أم يوما من أيام الله التى قال الله سبحانه وتعالى عنها :

﴿ وإنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴾

(الآية ٤٧ من سورة الحج)

وقوله تعالى :

﴿ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾

(الآية ٤ من سورة المعارج)

ولقد ادعى السطحيون من المستشرقين أن هناك تناقضا فى القرآن الكريم .. فكيف يمكن أن يكون اليوم ألف سنة . وأن يكون خمسين ألف سنة ؟ .. نقول لهم انكم لم تفهموا معنى كلام الله .. فالله سبحانه وتعالى هو خالق الزمن .. والزمن مخلوق لله .. يضع فيه من الأحداث ما يشاء .. ونحن نرى أن اليوم عندنا على الأرض .. وهو محدد من شروق الشمس إلى غروبها يستغرق وقتا معينا .. ولكن فى كواكب أخرى قد يختلف اليوم .. فالشمس تكون مشرقة لا تغرب عدة أيام أو عدة شهور .. وهى تغرب ولا تظهر عدة أيام أو عدة شهور .. إذن فالزمن نسبى .. وهو كمخلوق من مخلوقات الله مقياس للأحداث التى تقع فيه .. فنحن نقيس الأحداث بالزمن .. فنقول هذا العمل يستغرق يوما أو يومين أو ثلاثة إلى آخره .. فلكل شىء يحدث ظرف زمان وظرف مكان .. ظرف الزمان هو الوقت الذى يستغرقه الحدث .. وظرف المكان هو المكان الذى يقع فيه .. وإذا خرجنا عن دائرة الأحداث فنحن لا نحس بالزمن .. فالإنسان مثلا حين ينام لا يشعر بالزمن .. ولذلك عندما يستيقظ لابد أن ينظر إلى الساعة لكى يعرف كم ساعة نامها .. أو يعرف ذلك بمقاييس الزمن

العامة .. كأن يكون قد نام والشمس مشرقة .. واستيقظ وقد غابت وجاء الظلام .. أو أن يكون قد نام فى أول الليل واستيقظ وتكون الشمس قد أشرقت .. والإنسان لا يملك الزمن ولكن الزمن هو الذى يملكه .. فأنت لا تستطيع أن تبقى شابا طول حياتك .. ولا أن توقف الأحداث التى تمت أو التى ستتم .

إذن فالزمن مقياس للأحداث .. ولكنه مقياس نسبى وليس مقياسا محددا .. لأنه يخضع لمشيئة الله سبحانه وتعالى .. إن شاء أجراه على خلقه .. وإن شاء أوقفه .. ولذلك فإن الله سبحانه وتعالى وهو خالق الزمن .. يستطيع أن يخلق يوما مقداره اثنتا عشرة ساعة .. وأن يخلق يوما مقداره عام .. وأن يخلق يوما مقداره ألف سنة .. وأن يخلق يوما مقداره خمسون ألف سنة .. وأن يخلق يوما مقداره مليون سنة .. ذلك لأنه يخلق ما يشاء .. فبمقدار الأحداث التى يريد الحق سبحانه وتعالى لها أن تتم .. يخلق لها الزمن .. ويوم القيامة موجود فى علم الله سبحانه وتعالى بكل أحداثه .. وكل الخلق الذين سيحاسبون فيه .

وعندما يريد الحق سبحانه وتعالى لهذا اليوم أن يكون .. يقول له كن .. فيخرج من علمه إلى علم مخلوقاته سواء كانوا من الملائكة أو البشر أو الجان .

فإذا أراد الله سبحانه وتعالى يوم القيامة أن يحدث الآن حدث .. وإذا أراده أن يحدث بعد مليون سنة حدث

إذن فلا نحاول نحن .. أن نجعل مقاييس يوم القيامة كيوم من أيامنا .

ولذلك فمن رحمة الله سبحانه وتعالى .. أنه لفتنا فى القرآن الكريم إلى أنه لا يوجد عنده شيء اسمه يوم مطلق .. ولذلك قال ان هناك يوما يساوى ألف سنة .. ويوما يساوى خمسين ألف سنة .. حتى نعرف أن الله يخلق الزمن بقدر الأحداث التى يريدها الله سبحانه وتعالى أن تقع فيه .. ولذلك إذا قال يوم القيامة .. فمعنى ذلك أنه مقدار من الزمن يتسع لكل الأحداث التى ستقع فى هذا اليوم العظيم .. سواء استغرقت هذه الأحداث عاما بحسابنا الأرضى .. أو استغرقت ألف عام .. أو استغرقت أكثر من ذلك أو أقل .

إذن فاستخدام الحق سبحانه وتعالى لكلمة يوم .. لا نستطيع أن نعرف مقدار الزمن الذى سيستغرقه هذا اليوم .. فذلك مرتبط بمشيئة الله سبحانه وتعالى .. ولكننا نعرف منها أن الحساب لن يتوقف منذ تقوم الساعة حتى تتم محاسبة كل الخلق .. أى أن الله سبحانه وتعالى لن يأتى فى يوم القيامة ويؤجل باقى الحساب إلى يوم تال .. ولن تكون هناك فترات للراحة .. بل سيمضى الحساب متصلا كعمل يوم واحد وليست أياما متتالية .. وسيبقى الناس فى يوم المشهد العظيم حتى يتم حسابهم ، ثم يضرب الصراط فوق جهنم .. ليذهب أهل النار إلى النار وأهل الجنة إلى الجنة .

ماذا سيحدث يوم القيامة

الله سبحانه وتعالى .. قد أعطانا تصورات مختلفة ليوم القيامة .. وماذا سيحدث بالنسبة للدنيا .. فقال جل جلاله :

﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ . وإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ . وإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ . وإِذَا العِشَارُ عُطِّلَتْ . وإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ . وإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ . وإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ . وإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ . وإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ . وإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ . وإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ . وإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ عَلِمَتْ نَفْسٌ ماأَحْضَرَتْ ﴾

(الآيات من ١ - ١٣ - سورة التكوير)

ويقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ . وإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ . وإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ . وإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ . عَلِمَتْ نَفْسٌ مَاقَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴾

(الآيات من ١ - ٥ - سورة الانفطار)

كما أعطى الله سبحانه وتعالى صورا أخرى فى القرآن الكريم لما سيحدث فى هذا اليوم .. زوال للأرض التى نعيش عليها والسماء التى نستظل بها .. لأن الأرض والسماء التى فيها حياتنا إنما تختص بالحياة الدنيا وما فيها من أسباب وأغيار .. وهذا كله قد انتهى بقيام الساعة .. فلم تعد هناك أسباب ولا أغيار .. وإنما أصبح كل شىء من المسبب مباشرة .. وهو الله .. ومن الخالق مباشرة إلى خلقه .. إذن تنتهى الدنيا بأسبابها لأنها تكون قد أدت مهمتها .. وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ يَوْمَ تُبدلُ الأرضُ غير الأَرضِ والسمواتُ وبَرزُوا لله الواحدِ القهَّار ﴾

(الآية ٤٨ من سورة إبراهيم)

علاقة الإنسان بالقيامة تختلف باختلاف مراحل الحياة .. فهو فى الحياة الدنيا محجوب عن كل ما سيحدث يوم القيامة .. فإذا مات أبصر أشياء وحجبت عنه أشياء .. فإذا بُعث رأى كل شىء عين اليقين .. أى لمسه وعاشه كواقع وحقيقة .. والله سبحانه وتعالى أخفى عنا موعد الأجل .. وفى ذلك حكمة ورحمة .

أما الحكمة فاننا نتوقعه فى كل لحظة .. وننتظر أنه سيحدث فى كل ثانية .. فنحن لا نعرف متى نموت .. ولكن كل منا يمكن أن يأتى أجله فى أى لحظة .. وهذا يضع فى نفس الإنسان المؤمن الخير .. فما دام لا يعرف متى يلقى الله .. فانه يسارع فى الخير .. ويغتنم فرصة اليوم

ليفعل كل ما يستطيع من الخير .. حتى إذا لم يعش لغد يكون قد أخذ الثواب .. والمسارعة فى الخير تعود على الناس كلهم .. فكلما فعل الإنسان خيرا انتفع به المجتمع كله .. وهكذا يريد الله سبحانه وتعالى منا أن نسارع فى الخيرات .

هذه واحدة .. أما الثانية .. فهى أن نبتعد عن المعاصى .. لاننا لا نعرف إذا كان الأجل سيمتد بنا حتى نتوب أم لا .. فلا نرتكب المعاصى خوفا من أن يكون الأجل قد اقترب .. فنلقى الله ونحن على معصية فنعذب فى النار .. إذن إخفاء موعد الموت عنا .. هو اعلام به أولا ، لأننا نتوقعه فى أى لحظة .. وهو دفع لنا إلى الخيرات وبعد لنا عن المعاصى .. هذه هى الحكمة .

أما الرحمة فهى أننا لو عرفنا موعد أجلنا لظللنا طوال عمرنا فى هم .. ذلك أنه عندما تتوقع بلاء سيحدث لك .. فانك تعيش فى هم عميق وأنت تنتظره .. وفى كل يوم ستقول لم يبق لى على الأرض إلا كذا .. لم يبق لى لأترك أولادى إلا كذا .. سأترك أولادى صغارا لا يستطيعون مواجهة الحياة .. وهكذا فى هم وغم طوال حياتك ولذلك رحمة من الله .. أخفى عنا موعد الموت . لنستطيع أن نقبل على الحياة بأمل اننا سنعيش .. بل ان الإنسان يحلم بأنه سيفعل كذا وكذا فى العام القادم أو الذى يليه .. وربما يكون أجله بعد أسبوع أو أسبوعين .. ولكن هذا الأمل فى الحياة يجعله يبنى ويعمل وينفق مما يفيد المجتمع

كله .. فأى بناء فى الأرض مهما كان هدفه يفيد المجتمع . لانه يفتح أبواب الرزق للناس كل الناس .

فأنا حين أبنى عمارة . استفاد من مالى من حفر ومن وضع الحديد ومن قام بأعمال البناء والنجارة والبياض إلى آخره .. كل هؤلاء استفادوا .. فكأننى أعطيت حركة حياة للمجتمع بصرف النظر عما أخذت .

إذن فلفائدتى ولفائدة المجتمع أخفى الله موعد الموت .. ولكن نعرف يقينا أننا سنلاقيه .. فى قوله تعالى :

﴿ قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ﴾

(من الآية ٨ من سورة الجمعة)

ويقول أهل التصوف ان سهم الحياة وسهم الموت ينطلقان معا .. وأن ملك الموت يظل يبحث عن ذلك المكلف بقبض روحه .. فلا يجده ولا يعثر عليه إلا ساعة الأجل .. ففى هذه الساعة يلتقى ملك الموت مع ذلك الذى انتهى أجله .. ولكن قبلها لا يلتقيان ابدا .. وقوله تعالى :

﴿ تَفِرُّون منهُ ﴾

لأن الإنسان إذا رأى شبهة الموت فى أى عمل .. كأن يقول فى هذا العمل خطورة قد تؤدى به إلى الموت فانه يهرب منه .. ولكن هذا الهروب لا ينجيه إذا جاء أجله .

■ ■ ■

موعد الساعة
وحياة الإنسان

ومع أن موعد الساعة لا يرتبط بحياة بحياة الإنسان الدنيوية .. لأن الذى ينتقل من الحياة الدنيا إلى حياة البرزخ .. التى هى بين الموت والقيامة .. يرى أشياء كثيرة هى غيب عنه .. ويوقن مؤمنا كان أو كافرا بالساعة .. فان السؤال الدائم على لسان البشرية كلها .. هو متى تقوم الساعة .. ربما إحساسا منها بهول هذا اليوم .. وربما لأنه نهاية حياة وبداية حياة أخرى مختلفة تماما .. ولذلك فقد سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن موعد الساعة .. فيقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّى لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ﴾

(الآية ١٨٧ - سورة الأعراف)

المسئول هو رسول الله صلى الله عليه وسلم .. والذين سألوه هم اليهود .. فهم الذين كانوا يريدون أن يتحدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بما فى كتبهم وعلمهم .. فسألوه عن الساعة وعن الروح وعن ذى القرنين .. وجاءت الإجابة من الله سبحانه وتعالى مطابقة لما عندهم فى التوراة وزيادة عليه .. فعندما سألوه مثلا عن أهل

الكهف .. جاء الله سبحانه وتعالى مصححا لهم الزمن الموجود فى التوراه .. فقال لهم :

﴿ ثَلَاثَمِائَةٍ سِنِينَ وازْدَادُوا تِسْعًا ﴾

(من الآية ٢٥ من سورة الكهف)

وعندما بحثوا من أين جاءت التسع .. علموا أن الفرق هو بين التاريخ القمرى والتاريخ الشمسى .. فالله سبحانه وتعالى يؤرخ لكونه بأدق الحسابات .. ولذلك التوقيت العربى هو أدق الحسابات .. فكل عالم البحار يؤرخ له بالهلال .. وحسابات التاريخ الدقيقة تؤرخ بالهلال .. ونحن نحسب الشهر بالهلال .. لأن الشمس لا تدلنا على حساب الشهور .. وإنما الشمس دلالة يومية على الليل والنهار .. أما القمر فنعرف منه أول الشهر ووسطه وآخره .. والثلثمائة سنة شمسية تزيد عن القمرية بتسع سنوات .

وهكذا عندما سأل اليهود رسول الله صلى الله عليه وسلم عن موعد الساعة .. طلب الله من رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقول لهم « قل إنما علمها عند ربى » .. أى أنها غيب وستظل غيبا لا يطلع عليه أحد ، ولا يعرف وقتها أحد .. حتى إنه قيل إن إسرافيل وهو الملك المكلف بأن ينفخ فى الصور .. لكى تقوم الساعة لا يعرف موعدها .. وأنه يقف فى حالة استعداد مستمر .. حتى إذا أتاه أمر الله قام بالتنفيذ فى التو واللحظة .. وحتى

الملائكة المقربون لا يعرفون موعد الساعة .. لأن الله اختص نفسه بها .. ثم يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ لا يجليها لوقتها إلا هو ﴾

يجليها أى يظهرها .. وهناك الجلوة والخلوة .. الجلوة هى الظهور .. والخلوة هى الاختفاء .. وقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ لوقتها ﴾

هذه لام التوقيت تماما كقوله تعالى :

﴿ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ ﴾

(من الآية ٧٨ من سورة الإسراء)

ومعنى دلوك الشمس .. أى أنها تتجاوز نصف السماء .. إذن قوله تعالى :

﴿ لا يجليها لوقتها ﴾

أى لا تظهر إلا إذا جاء وقتها .. وقوله تعالى :

﴿ إلا هــو ﴾

أى أن الله سبحانه وتعالى وحده هو الذى سيظهرها .. ولن يعرف بها حتى أقرب الملائكة المقربين إلى الله إلا ساعة تظهر .. ثم يقول الحق :

﴿ ثقلت فى السموات والأرض ﴾

ما معنى ثقلت ؟

.. أى أن الكتلة أكبر من الطاقة التى تحملها .. فأنت حين تحمل شيئا أقل من قوة عضلاتك .. يقال هذا الشيء خفيف .. وعندما تحمل شيئا مساويا لقوة عضلاتك يكون هذا الشيء عاديا .. فإذا كان أكبر من قوة عضلاتك يكون ثقيلا .. ولكن هل الثقل لا يكون إلا فى الأمور المادية ؟ .. أم أنه يكون ثقلا فكريا وعقليا ؟ .

يعنى عندما تعطى طالبا فى السنة الأولى بكلية الهندسة تمرينا مقررا على السنة الرابعة .. يقال لك هذا التمرين ثقيل على طاقة عقله لا يستطيع العقل أن يحله .. هذا ثقل فكرى .. وهناك ثقل معنوى مثل الهم .. وهذا أقسى أنواع الثقل .. لأنك يضيق صدرك عن أن تحمله .. فهو ثقل نفسى .

ولذلك يقال إنه ليس الثقل ما حمله الظهر .. ولكن الثقل ما ضاق به الصدر .. إذن فعندنا ثلاثة أنواع من الثقل .. ثقل مادى .. وثقل فكرى .. وثقل نفسى .. قيام الساعة أى نوع من هذه الأثقال الثلاثة ؟ إنها الأنواع الثلاثة كلها .. فالساعة ثقيلة ماديا .. وثقيلة معنويا .. وثقيلة نفسيا .

الثقل المادى هو على الأشياء المادية فى الكون .. فالأرض والشجر والجبال وكل مافى هذا الكون مقهور لله سبحانه وتعالى .. وهو مقهور على الطاعة .. مسبح لله فى كل وقت .. وعندما ترى كل هذه الأشياء .. الإنسان الذى يأخذ خيرها والذى تخدمه وهو يعصى الله سبحانه

وتعالى ويكفر به ويفسد فى كونه .. تتميز هذه الأشياء من الغيظ .. فالأصنام تلعن من يعبدها .. وتتمنى لو أن الله أعطاها القدرة لتفتك به .. والشمس التى تعطى من ضوئها وأشعتها للكافر وتخدمه عملية ثقيلة على نفسها .. وهى تتمنى أن يأذن لها الله بأن تحرق هذا الكافر العاصى .. والبحار وهى تخدم الإنسان تتمنى من الله أن يأذن لها أن تغرق الكافر وتمحوه من الوجود جزاء على كفره .. وكذلك كل شىء فى الدنيا من الماديات .. كلها مسبحة لله .. وكلها تتميز غيظا .. وكلها تتمنى أن يأتى يوم القيامة فيحاسب فيه الكافر على كفره .. ولا يقول أحد أن المادة ليست لها عاطفة .. بل المادة لها عاطفة .. وعاطفة راقية وان كنا لا نفهمها .. واقرأ قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ كم تركُوا من جَنَّاتٍ وعيُونٍ وزُروعٍ
ومَقامٍ كريمٍ . وَنعمةٍ كانُوا فيها
فاكهينَ . كذلك وَأورثْنَاهَا قوماً
آخرينَ . فما بكَتْ عليهِمْ السَّماءُ
والأرضُ وما كانُوا مُنظَرين ﴾

(الآيات من ٢٥ إلى ٢٩ من سورة الدخان)

إذن السماء تبكى .. والأرض تبكى .. ومعنى ذلك أن لهما عاطفة .. عاطفة راقية .. ويقال إذا مات العبد الصالح بكى عليه موضعان .. موضع سجوده فى الأرض .. وموضع رفع عمله فى السماء .. وهكذا نرى أن المادة لها

عواطف .. وأنها تكره العاصين والكافرين .. ويثقل عليها أن تكون فى خدمتهم .. ولذلك فهى تستعجل والوقت يمر ثقيلا عليها .. لانها تريد أن ترى ابن آدم هذا الذى كفر بالله وبنعمه وهو يجازى على كفره .. ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى فى الحديث القدسى :

﴿ مامن يوم تطلع شمسه إلا وتنادى السماء تقول : يارب ائذن لى أن أسقط كسفا على ابن آدم . فقد طعم خيرك ومنع شكرك . وتقول البحار : يارب ائذن لى أن أغرق ابن آدم . فقد طعم خيرك ومنع شكرك . وتقول الأرض : يارب ائذن لى أن أبتلع ابن آدم . فقد طعم خيرك ومنع شكرك . وتقول الجبال : يارب ائذن لى أن أطبق على ابن آدم . فقد طعم خيرك ومنع شكرك . فيقول الله تعالى : دعوهم . دعوهم . لوخلقتموهم لرحمتموهم . إنهم عبادى فإن تابوا إلى فأنا حبيبهم وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم ﴾

أما الثقل المعنوى .. فهو فى السماء .. فالملائكة الذين سجدوا لآدم وهم الموكلون بمصالحه وبحياته .. الذين سخرهم الله لخدمته .. فمنهم الحفظة وغيرهم .. هؤلاء يثقل فى صدورهم ما يفعله الإنسان من معاص وكفر بالله .. وهم يرون الكافرين يسخرون من المؤمنين .. يتمنون لو تاتى الساعة لينال هؤلاء جزاءهم .. هذا بالثواب وهذا بالعقاب .. ولذلك فان الملائكة يحملون هذا الثقل المعنوى وهم يرون الفساد فى الأرض ، ويتمنون أن تأتى الساعة ليظهر الحق ، وينال العاصون والكافرون جزاءهم .

والساعة ثقيلة على النفس لأن الناس تخشاها .. فهى ثقيلة على المؤمن الذى يستبطئها ويريد أن يصل إلى الثواب وإلى الجنة .. وهى ثقيلة على نفس الكافر لأنه يخشى ما سيقابله فيها من عذاب .. ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ . يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ ﴾

(الآيات ١، ٢ ـ سورة الحج)

صورة مخيفة .. تلقى الرعب والهلع فى النفوس .. وتكون ثقيلة نفسيا .. ثم يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ﴾

(من الآية ١٨٧ من سورة الأعراف)

.. أى أنها لا تحدث إلا فجاة .. ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : (والذى نفسى بيده إن الساعة لتهيج الناس حتى تاتى للرجل وهو يصلح حوضه ، وتاتيه وهو يعلف ماشيته ، وتاتيه حينما يتناول لقمة فلا تمكنه أن يدخلها فى فمه) .. وهكذا نرى أن الساعة من هولها ثقيلة .. ثقيله على الكون .. ثقيلة على الناس .. ثقيلة على الملائكة .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عنها ﴾

(من الآية ١٨٧ من سورة الأعراف)

وحفى من الحفاوة .. والحفى هو الذى يلح فى طلب الأشياء .. فالتلميذ مثلا حين يقرب الامتحان ويكون عنده سؤال لا يعرف إجابته .. يسأل أساتذته فهو حفى بالسؤال يلح فيه ليحصل على الإجابة .. وكلها من مادة الحفاء .. والإنسان فى شئونه إما أن يعالجها ، وهو مستقر فى مكانه مستريح .. وإما أن ينتقل وراءها من مكان إلى آخر ليقضيها .. فإذا انتقل وراءها من مكان إلى آخر استهلك النعل الذى يلبسه ويصبح حافيا .. لذلك يقال فلان حفى

حتى وصل إلى هذا الأمر .. أى قام بانتقالات كثيرة ، حتى أصبح كالحافى لأن نعله بلى .. ويطالب الله جل جلاله رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يقول لليهود الذين سألوه :

﴿ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللهِ ﴾

(من الآية ١٧٨ من سورة الأعراف)

يعود ليؤكد أن الله سبحانه وتعالى قد اختص بها نفسه .

■ ■ ■

ما معنى
أكاد أخفيها

على أننا ، ونحن نتكلم عن موعد الساعة ، لابد أن نتعرض للآية الكريمة :

﴿ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى . فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى ﴾

(الآيتان ١٥ و ١٦ - سورة طه)

.. ما معنى :

﴿ أكاد أخفيها ﴾

ولماذا لم يقل الحق سبحانه وتعالى أخفيها .. قوله تعالى :

﴿ أكاد أخفيها ﴾

معناها أنه لا يخفيها بل يبديها بالتدريج .. إذن حتمية قيام الساعة الله يبديها .. ولكن موعد قيام الساعة الله يخفيه .. كيف ؟ .

لو نظرنا إلى الكون لوجدنا أن هناك علامات صغرى وعلامات كبرى لقيام الساعة .. وقد اعطانا رسول الله صلى الله عليه وسلم العلامات الصغرى لقيام الساعة .. ومنها أن تلد الأمة ربتها .. أى تصبح الابنة هى سيدة

البيت وتتحكم فى أمها وتجعلها تفعل ماتشاء .. ولا تجد الأم إلا أن تستسلم .. ومن علامات الساعة أن يتبع الناس هواهم .. وأن يضيع الحق .. وتختفى الأمانة ويكون هناك شح مطاع .. فيبخل كل إنسان بجهده على عمله .. ويعطى أقل القليل .. فلا يجيد المدرس التدريس لتلامذته .. ولا يجيد الصانع صنعته .

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إذا رأيت هوى متبعا وشحا مطاعا وإعجاب كل ذى رأى برأيه فانتظر الساعة) .

* * *

ومن علامات الساعة أيضا أن يتطاول الحفاة العراة فى البنيان .. وأن يعطى الشىء لغير أهله .. وينتشر الفساد ويختفى الإيمان من القلوب .. إلى غير ذلك مما أخبرنا عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم .. وكل هذه العلامات قد تحققت .. وبقيت العلامات الكبرى هى التى لم تتحق بعد .. إذا رأينا نحن العلامات الصغرى للساعة وقد تحققت .. نعرف يقينا أننا سائرون إليها .. وتبدو لنا الساعة وهى تقترب .. فإذا أضفنا إلى ذلك أن فناء الأرض الذى كان خارج نطاق العقل البشرى قد أصبح الآن قريبا من هذا العقل .. لعرفنا يقينا أنه من الممكن أن تزول هذه الأرض فى أى لحظة .. فمنذ مائة سنة لو أنك حدثت إنسانا عن أن هذه الأرض يمكن أن تزول فى أى لحظة ما صدقك .. ولكن الآن إذا انفجر نصف ماهو مخزن على

الأرض من قنابل ذرية وهيدروجية لدمرت الأرض فى لحظة .

إذن أصبحت مسألة دمار الأرض داخل نطاق العقل البشرى بعد أن كانت بعيدة عنه .. أليس هذا ابداء لأشياء كانت مخفية عنا .. ترينا أن قيام الساعة ممكن وعلم يقين بالنسبة للعقل البشرى .. المؤمن منه وغير المؤمن .

■ ■ ■

كيف سيتم البعث ؟

على أن بعض الناس يتساءل .. كيف سيتم البعث ؟ .. وقد اختلطت عناصرنا بعناصر الأرض .. وكونت غذاء جديدا اختلط بمخلوقات أخرى .. وهم يضربون لذلك مثلين :

المثل الأول .. لنفرض أن إنسانا مات ودفن فى الأرض وعلى قبره زرعت شجرة تفاح .. ونمت تتغذى من عناصر جسد الإنسان .. وأنبتت ثمرة فيها بعض هذه العناصر .. وأكلها إنسان آخر فكونت جسده واختلطت العناصر بعضها البعض .. كيف ستفصل هذه العناصر يوم القيامة ؟ .

وهل بعد أن اختلطت عناصر بعناصر جسد آخر يمكن أن تفصل ؟ .

والمثل الثانى .. إذا ابتلع حوت إنسانا وأصبح هذا الإنسان طعاما للحوت وأخذ كل عناصره ليهضمها ويجعلها مادة غذائية له .. كيف يمكن أن تفصل هذه العناصر ؟ .

نقول لهؤلاء الناس .. لقد جهلتم معنى الخلق .. فالخلق ليس عناصر ولكنه إيجاد بشكل مميز .. ذلك أننا لو طبقنا هذا الكلام لقلنا هب إنسانا مرض وأدى هذا المرض إلى أن يفقد من جسده عشرين كيلو جراما مثلا .. فهل يكون هو نفس الشخص أو لا ؟ .. نعم يكون هو نفس الشخص ..

فإذا استرد قوته وزاد وزنه عشرين كيلو جراما .. هل يكون هو نفس الشخص أو لا ؟ .. أم أننا نجد أنه قد تحول إلى إنسان آخر بمجرد فقده العشرين كيلو من عناصر تكوينة أو استرداده لها .

كل إنسان مخلوق مميز .. لا يشبه مخلوق مخلوقا آخر حتى قيام الساعة .. فكل منا مكون من نسبة معينة من عناصر الأرض .. وعندما يريد الله أن يعيده .. يأمر هذه النسبة فتتحد من جديد لتعيد تكوين نفس الشخص .. فالعناصر التى تكون الإنسان لها نسب لا نهائية فى التكوين .. ونحن نرى مع أننا كلنا مخلوقون من عناصر الأرض .. إلا أن كلا منا مميز بشكل ما يعطيه ذاته .. تماما كما تخلط عددا من العناصر لتكوين شيء ما .. كلما أضفت قطرة أعطتك شيئا مختلفا .. فأنت حين تخلط ألوان الطلاء .. لو أضفت قطرة من اللون الأسود أعطتك لونا .. وقطرتين أعطتك لونا آخر وثلاث قطرات تعطيك لونا ثالثا .. وقطرة من اللون الأحمر تعطيك لونا رابعا .. فإذا أضفت قطرة من اللون الأصفر حصلت على لون مختلف .. وكلما كانت الزيادة بدقة حصلت على عدد لا نهائى من الألوان .

وهكذا شخصية الإنسان .. تكوين دقيق من الله تبارك وتعالى .. لا يتكرر بين شخص وشخص .. وإذا جاءت الساعة وصدر أمر الله عادت نفس التكوينات إلى أصلها ليخرج نفس الأشخاص .

والله سبحانه وتعالى يريد أن نفهم هذه الحقيقة . فالله سبحانه وتعالى قد خلقنا من عدم .. أى لم نكن موجودين وقد أوجدنا .. فأسهل عليه أن يعيدنا .. أى أنها ستكون عملية خلق من موجود وليس من عدم .. وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾

(الآيتان ٧٨ و ٧٩ من سورة يس)

أى أن الله الذى علم خلقكم أول مرة .. وبهذا العلم خلق .. يستطيع أن يردكم مرة أخرى إلى الحياة وهو أهون عليه .. ويرد الله سبحانه وتعالى على أولئك الذين يتحدثون عن اختلاط عناصر الإنسان بعناصر الأرض فيقول جل جلاله :

﴿ وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾

(الآيات من ٤٩ - ٥١ من سورة الإسراء)

وهكذا رد القرآن الكريم على مسألة اختلاط العناصر ..

وقال لهم فلتختلط عناصركم بالحجارة أو بالحديد .. أو بأى خلق آخر سواء كان نباتا أو حيوانا أو إنسانا .. فان الله الذى خلقكم أول مرة وأوجدكم من عدم قادر على أن يعيدكم .. وهكذا لا يجب أن يكون عند أى إنسان شك فى أنه سيبعث هو بنفسه وبذاته بقدرة الله يوم القيامة .

وفى يوم القيامة سيخرج الناس من هذه الأرض التى نعيش عليها مصداقا لقوله تعالى :

﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴾

(الآية ٥٥ من سورة طه)

نلاحظ أنه فى كل الأحوال ذكرت الأذن فى القرآن الكريم قبل العين أو السمع قبل البصر .. فالله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَهُوَ الَّذِى أَنْشَأَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ ﴾

(من الآية ٧٨ من سورة المؤمنون)

ويقول تعالى :

﴿ إِنَّ السَّمْعَ والْبَصَرَ والْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولا ﴾

(من الآية ٣٦ من سورة الإسراء)

وغيرها فى الآيات التى تؤكد لنا أن السمع يعمل أولا فى الإنسان .. فإذا قربت اصبعك من عين طفل حديث

الولادة فانه يحس .. وإنما إذا أحدثت صوتا مزعجا بجواره فانه يفزع .. كما أن العين تنام ، والأذن لا تنام أبدا .. ولكن مرة واحدة جاءة العين قبل الأذن فى القرآن الكريم .. وذلك فى قوله تعالى :

﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾

(الآية ٦٨ من سورة الزمر)

فى هذه الآية وحدها ذكرت العين قبل الأذن .. لماذا ؟ .. لانه فى ساعة البعث وعندما ينفخ فى الصور ليخرج الناس من قبورهم أول ما يحدث أنهم يرون .. ثم بعد ذلك يسمعون .. فهم يرون هذا المنظر الرهيب والناس تخرج من قبورها والحشر يتم .. وتكون الرؤية هنا بالعين .. ثم بعد ذلك يبدأ عمل الأذن وتستطيع أن تميز .

ولذلك فانه ساعة البعث من القبور أول شىء نرى ونشاهد .. ويكون الزحام شديدا لأن كل الخلق الذين عاشوا على هذه الأرض فى فترات مختلفة .. على طول الزمن من عهد آدم إلى قيام الساعة يبعثون مرة واحدة .. لذلك سمى يوم الحشر .. لأن الأجساد فيه تحشر حشرا نظرا لضيق المكان وكثرة عدد الخلق .. ولذلك سمى يوم الحشر .. ولا نخرج هكذا جزافا .. بل بنظام دقيق ..

بحيث أن كل واحد منا موكل به ملك .. مسئول عنه منذ اللحظة التى يخرج فيها من قبره .. حتى يبلغ مكانه فى أرض الميعاد أو أرض الحشر .. فكل منا يحمل معه كتابه .

قد يتساءل البعض .. كيف يمكن فى هذا اليوم الرهيب أن تتم السيطرة على كل شىء ؟ .. نقول إنها قدرة الله .. تأتى بكل إنسان وتوصله إلى مكانه .. وفى الوقت الذى ينتقل فيه الناس من هذه الأرض إلى أرض الميعاد مصداقا لقوله جل جلاله :

﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غيرَ الأرضِ والسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لله الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾

(الآية ٤٨ - سورة إبراهيم)

نقول إنه فى ذلك الوقت تكون الشمس قريبة من الأرض .. ويكون الوقوف فى المحشر عملية شاقة جدا على الناس .. حتى أنهم يتمنون أن يقضى الله بينهم .. ويلجأ الناس إلى الأنبياء .. علهم يشفعون لهم عند الله سبحانه وتعالى .

معه سائق وشهيد

على أننا قبل أن نبدأ الحديث .. عما سيتم يوم القيامة .. والمشاهد التى سيراها الناس فى ذلك اليوم .. نحب أن نقول أن كل إنسان فى هذا الموقف سيكون معه سائق وشهيد .. مصداقا لقوله تعالى :

﴿ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴾

(الآية ٢١ سورة ق)

من هو السائق ؟ .. السائق هو الذى يسوق الغنم إلى المرعى .. ومكانه دائما خلف من يسوقه .. حتى يصحح له مساره إذا انحرف يمينا أو يسارا .. كما أنه وهو خلفهم لا يغيب عن نظره .. فلا يمكن أن يتجه ويشرد إلى مكان .. بينما لو لم يكن يسوقه وكان يمشى أمامه ليدله على الطريق .. لكان من الممكن أن يذهب يمينا أو يسارا دون أن يتنبه إليه .

كما أن الذى يسوق يصحح المسار دائما ولو بالقهر .. ولذلك فإذا ضل أى إنسان الطريق أو حاول أن يضل صحح له مساره بالقهر .. والصورة هنا ليست صورة حسية بقدر ما هو مقصود منها أن تعطينا المعنى .. والله سبحانه وتعالى يريدنا أن نعرف أن أحدا لا يمكن أن

يضل أو يتوه أو يختفى بسبب الزحام الشديد .. فكل واحد عليه رقيب هو مسئول عنه .. حتى يوصله إلى المكان الذى سيقف فيه ساعة الحساب .. وكل واحد له مكان محدد لا يستطيع أن يفلت منه .. مصداقا لقوله تعالى :

﴿ وما هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴾

(الآيتان ٢٥ و ٢٦ من سورة التكوير)

أما الشهيد الذى سيكون فهو عمل الإنسان .. ويحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة وغرلا .. مصداقا لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم :

﴿ إنكم تحشرون حفاة عراة غرلا يوم القيامة ﴾

كما يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ويحدثكم الله بحديث يسمعه القريب والبعيد) .

على أنه هناك مشاهد فى يوم القيامة .. وهناك من سيدخل الجنة ومن سيدخل النار ومن سيكون على الأعراف .. فمن هم ؟ .

■ ■ ■

■ الفصل الرابع ■

المشهد العظيم

يخرج الناس يوم القيامة من قبورهم ليقادوا إلى أرض الحساب أو أرض الميعاد .. وهى غير هذه الأرض التى نعيش فيها .. وإنما هى مخلوقة من أجل هذا اليوم بالذات .. وهم فى خروجهم يكونون حفاة عراة متجهين إلى الحساب وقد ملأت قلوبهم الهيبة والخوف .. والله سبحانه وتعالى يصف هذه اللحظة فيقول :

﴿ يا أيُّها النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَاهُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ الله شَدِيدٌ ﴾

(الآيتان ١ و ٢ من سورة الحج)

هل يذهب الناس إلى المحشر على صورة واحدة ؟ .
الجواب عن ذلك لا .. إنما يكونون على ثلاث هيئات : منهم من يمشى مسرعا أو يكون راكبا .. وهؤلاء هم المؤمنون من أهل الجنة .. ومنهم من يمشى على مهل وهؤلاء هم الذين كانوا لا يسرعون إلى المنهج .. بل كانوا يتمهلون .. فإذا أُذِّن للصلاة يتباطأون ولا يقومون على الفور للعبادة .. أما الفئة الثالثة : فيجرون على وجوههم جرًا .. وهؤلاء هم الذين يعرفون أن مصيرهم إلى النار .

معنى هذا أن الناس حين يقومون من قبورهم يكونون قد عرفوا مصيرهم .. نقول نعم .. إن الإنسان يعرف مصيره ساعة الاحتضار .. ففى اللحظات التى تخمد فيها البشرية ، وهو ما نسميه (الغرغرة) ، أى اللحظات التى تسبق الموت يعرف الإنسان فيها مصيره .. مصداقا لقوله تعالى :

﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِى غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلاَئِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾

(الآية ٩٣ من سورة الأنعام)

وقوله سبحانه :

﴿ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴾

(الآية ٢٧ من سورة محمد)

وقوله جل جلاله :

﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

(الآية ٣٢ من سورة النحل)

إذن فالإنسان ساعة يموت يعرض عليه مقعده من الجنة ومقعده من النار .. قد يتساءل الناس إذا كان من أهل الجنة فلماذا يعرض عليه مقعده من النار ؟ .

نقول إن الله سبحانه وتعالى يريد أن يعرف أهل الجنة مم نجوا .. ولذلك يعرض عليهم مقعدهم من النار ليحسوا بنعمة الله الكبيرة عليهم بأن نجاهم من هذا العذاب .. ثم يعرض عليهم مقعدهم من الجنة ليعرفوا مدى النعيم .. لأن هناك مرحلتين فى الحساب : مرحلة يزحزح فيها الإنسان عن النار ويصبح من أهل الأعراف بين النار والجنة .. ومرحلة يدخل فيها الجنة .. ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

فمن زُحزح عن النار وأُدخل الجنةَ فقد فاز ﴾

(من الآية ١٨٥ سورة آل عمران)

أى أن الزحزحة عن النار مرحلة ، ودخول الجنة مرحلة أخرى .

الله سبحانه وتعالى يُرى المؤمن مقعده من النار ليحس بالهول العظيم الذى نجا منه .. ويُرى الكافر مقعده من الجنة ليعرف النعيم الكبير الذى حُرم منه .. والله أعد لكل منا مقعداً فى النار ومقعداً فى الجنة .. إذن الإنسان وهو يحتضر يُرى مقعده من النار ومقعده من الجنة .. ولكن هناك فرقا بين العرض وبين الدخول .. فالعرض مجرد رؤية .. ولكن الدخول بالنسبة لأصحاب الجنة نعيم .. وبالنسبة لأصحاب النار أهوال .. والناس فى الفترة التى يقضونها بين الموت والبعث تمر عليهم كأنها فترة قصيرة .. إذ لا زمن فى حياة البرزخ كما أوضحنا فى الكتاب التاسع من هذه السلسلة عن مشاهد يوم القيامة .. والله سبحانه وتعالى يقول عنها :

﴿ كأنهم يومَ يرونها لم يلبثوا إلا عشيةً أو ضُحاها ﴾

(الآية ٤٦ من سورة النازعات)

أى الذين ماتوا من عهد آدم حين يبعثون كأنهم ناموا فى قبورهم ليلة واحدة .. والإنسان عندما يرى الحساب

فى قبره معناه انه قد عرف أعماله لدرجة أنه هو بنفسه سيحكم على أعماله ويعرف مصيره .. وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : (القبر إما روضة من رياض الجنة او حفرة من حفر النار) .. أى أن الراقد فيه إما أن يكون صالحا ينتظر الجنة فيكون فى نعيمها .. وإما ينتظر النار فيكون فى جحيمها .. وعندما ينفخ فى الصور ، ويخرج الناس من قبورهم .. يكون كل واحد منهم عالما بمصيره .. ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وجوهٌ يومئذ ناضـرةٌ إلى ربها ناظرة . . ووجوهٌ يومئذ باسرةٌ . تظن أن يُفعل بها فاقرة ﴾

(الآيات ٢٢ إلى ٢٥ من سورة القيامة)

معنى تظن أنها لم تدخل النار بعد وإلا ماكن هذا ظنا بل كانَ واقعا .. إذن هى لم تحاسب بعد .

■ ■ ■

رؤية الله

بعض الناس يحلو له أن يتساءل عن رؤية الله فى قوله تعالى :

﴿ إلى ربها ناظرة ﴾

نقول إن الله سبحانه وتعالى برحمته أعطانا فى الحياة الدنيا ما يقرب لنا الغيب .. فنحن لا نرى الله فى الدنيا .. لأن بصرنا لا يصلح لهذه المهمة حتى نؤمن بالغيب .. أما فى الآخرة فالله يغير فى خلقه ما يشاء .

وإذا كان هذا يحدث فى الدنيا .. فأنا أشعر بضعف فى نظرى فأذهب إلى الطبيب فيطلب منى استخدام نظارة أو إجراء عملية جراحية فأرى مالم أكن أراه ، لأن النظارة قد زادت من قدرتى على الرؤية .. إذا كان هذا ما يصنعه المخلوق للمخلوق .. شىء يخرج عينه عن قانونها إلى قانون آخر .. فكيف بنا يوم القيامة ، وقد تغير فينا ما تغير بقدرة الله سبحانه وتعالى .. ألا يكون ممكنا أننى سأرى بقوانين أخرى غير القوانين الدنيوية .

إن الخطأ أن يقيس الناس قانون فترة من فترات الحياة بقانون فترة أخرى منها .. فكل فترة لها قوانينها .. فنحن فى عالم الذر لنا قوانين تحكمنا .. فإذا انتقلنا إلى الحياة الدنيا فإن لنا قوانين أخرى .. وفى حياة البرزخ بعد الموت لنا قوانين نخضع لها .. وعند البعث لنا قوانين أخرى .. وفى الجنة أو فى النار هناك قوانين أخرى ..

منها قانون الأبدية مثلا .. هو أننا لا نموت وتكون حياتنا فى شباب دائم - إلى آخر هذه القوانين .. بل إن الإنسان وهو نائم له قوانين تختلف عنها فى حالة اليقظة .. ولذلك فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم يلفتنا إلى ذلك فيقول :

﴿ والله إنكم لتموتن كما تنامون ، ولتبعثن كما تستيقظون ﴾

يذهب الناس من هذه الأرض إلى أرض الميعاد حيث يتم الحساب .. وتكون الشمس فى أرض الميعاد قريبة من رءوس الناس .. حتى إنهم يعرقون بشدة .. ويشتد الكرب عليهم ويطلبون الحساب .. ويبحثون عمن يتجهون إليه ليشفع لهم عند الله .. فيتجهون أول ما يتجهون إلى آدم عليه السلام .. لأن الله خلقه بيديه ، وأسجد له ملائكته ، وعلمه كل شىء .. ويطلبون منه أن يشفع لهم عند الله حتى يريحهم مما هم فيه .. فيذكر لهم آدم خطيئته فى الأكل من الشجرة .. فيتجهون إلى نوح عليه السلام ، باعتباره أول الأنبياء ليشفع لهم فيذكر لهم خطيئته بالنسبة للشفاعة لابنه وهو كافر .. فيتوجه الناس إلى إبراهيم عليه السلام خليل الرحمن .. فيذكر لهم خطيئته فى الاستغفار لأبيه .. فيأتون موسى عليه السلام كليم الله .. فيذكر لهم خطيئته فى قتله نفسا بغير عمد فى خلال مشاجرة حدثت قبل أن يهاجر موسى إلى مدين .. ثم يتوجه الناس إلى عيسى عليه السلام رسول الله وكلمته

فيقول لهم عيسى عليه السلام اذهبوا إلى محمد ، فقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر .. فيأتون رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقبل أن يشفع لهم .

معنى الشفاعة

وقبل أن نمضى فيما سيحدث لابد أن نعرف معنى الشفاعة .. الشفاعة أن يكون إنسان له شيء ، أو يطلب شيئا فلا يقبل منه .. فيأتى بمن هو أقرب منه عند المشفوع لديه .. إذن فالشفاعة لابد أن تتم بواسطة اثنين .. ولذلك فان الشفع زوج ، والوتر واحد .. وفى الشفاعة هناك شافع ومشفوع له ومشفوع عنده ومشفوع فيه .. ففى دنيانا إذا كان لى مصلحة عند إنسان لا أستطيع أن أقضيها .. أبحث عن شخص ذى مكانة ليشفع لى عند من بيده قضاء الحاجة .. إذن فالشخص الذى يشفع لى لابد أن تكون له مكانة لدى المشفوع عنده .. هذه الشفاعة فى الدنيا .

أما الشفاعة فى الآخرة فان الذى بيده الملك هو الله مباشرة وبدون أسباب .. إذن لابد لمن يشفع أن تكون له منزلة لا عند الملائكة ولا الأنبياء .. ولكن عند الله سبحانه وتعالى وحده .. لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ من ذا الذى يشفعُ عنده إلا بإذنهِ ﴾

(من الآية ٢٥٥ سورة البقرة)

أى بإذن من الله وحده تتم الشفاعة .. إذن لابد أن يكون هناك إذن من الله قبل أن تُطلب الشفاعة .. وأن تكون منزلة من يشفع عالية جدا عند الحق سبحانه وتعالى .. لدرجة أن الحق سبحانه وتعالى يقبل منه الشفاعة لغيره .. فرسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذا الموقف لا يشفع لنفسه ، ولكنه يشفع لغيره .. يشفع لخلق الله جميعا مؤمنهم وكافرهم .. فلرسول الله صلى الله عليه وسلم شفاعتان فى الآخرة .. شفاعة عامة للإنسانية كلها .. وهذا معنى قول الله تبارك وتعالى :

﴿ وما أرسلناكَ إلا رحمةً للعالمين ﴾

(الآية ١٠٧ ـ سورة الأنبياء)

فرسول الله صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين فى الدنيا .. بأن أبلغهم منهج الله الذى ينجيهم من النار ويدخلهم الجنة .. ورحمة للعالمين فى الآخرة فى أنه يشفع لهم عند الله سبحانه وتعالى من موقف الهول الذى يقفونه فى انتظار الحساب فتقبل شفاعته .

والشفاعة الثانية هى لرسول الله صلى الله عليه وسلم لأمته .

ومكانة رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ربه تؤهله لهذه الشفاعة .. فهو خاتم المرسلين .. لا رسول بعده .. وهو مرسل للعالمين .. أى للدنيا كلها .. وليس إلى قومه فقط .. ورسالته صلى الله عليه وسلم هى الباقية إلى يوم القيامة .. وهو صلى بالأنبياء إماما .. والله سبحانه

وتعالى أشهد الأنبياء على رسالته فى قوله سبحانه

﴿ وإذ أخذَ الله ميثاقَ النبيين لما آتيتُكم من كتابٍ وحكمة ثم جاءكم رسولٌ مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنهً . قال : أقررتُم وأخذتم على ذلكم إصرى ، قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشَّاهدين ﴾

(الآية ٨١ ـ من سورة آل عمران)

الناس كلهم فى كرب .. تطول وقفتهم فى انتظار الحساب حتى يتمنوا أن يصرفوا ولو إلى النار .. كأن انتظار الحساب أشد هولا من العذاب .. حينئذ يتقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم للشفاعة عند ربه .. وتكون شفاعته أن يفصل الله بين الناس كل الناس منذ عهد آدم حتى قيام الساعة .. أى إن شفاعته قد شملت العالمين .. وسنتناول شفاعة الرسول لأمته فى فصل قادم .

يتقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم ويستأذن من ربه فيؤذن له .. فإذا رأى الله خر ساجدا ويظل فى سجوده ما شاء الله حتى يقال له : ارفع يا محمد وقل يسمع لك وسل تعطى واشفع تشفع .. فيشفع رسول الله صلى الله عليه وسلم للبشرية كلها ويبدأ الحساب .

* * *

الله تبارك وتعالى فى بداية الحساب يأمر أن يكون كل إنسان مع ما عبد .. أى مع من اتخذه إلها .. فيتفرق الناس حسب من عبدوهم .. يتجه عبدة الأصنام إلى الأحجار التى عبدوها .. وعبدة الشمس يتجهون إلى الشمس .. والذين عبدوا الشياطين يتجهون إليهم .. والذين عبدوا القمر أو الحيوانات أو الإنسان أو غير ذلك يتجهون إلى ما عبدوه .. واليهود الذين عبدوا « عزير » وادعوا أنه ابن الله يتجهون إلى الشياطين التى سولت لهم ذلك .. والذين عبدوا عيسى ابن مريم وأمه يتجهون إلى الشياطين التى أوحت لهم بذلك .

■ ■ ■

الذين عبدوا غير الله

كل فئة تقف مع الإله الذى عبدته من دون الله .. سواء كان الأله حجرا ، أو ملائكة ، أو رسلا .. أو خلقا من خلق الله كالشمس والقمر والنجوم .. ويبقى الذين عبدوا الله وحده معا .. والذين أشركوا بالله مع ما أشركوا .. فالله أغنى الشركاء عن الشرك .. ولا يقول أحد : أن إنسانا سيستطيع الخداع فى هذا الموقف .. أى أنه مثلا يكون من عبدة الأصنام ويقف مع الذين عبدوا الله .. لأنه فى هذا الموقف انتهت سيطرة الإنسان تماما على جوارحه ولم تعد له ذاتية .. بل أصبحت هذه الجوراح تتلقى أوامرها من الله مباشرة .

ولذلك فان اقدام هؤلاء الذين أشركوا بالله أو عبدوا غير الله ستتجه بهم إلى ما عبدوا رغم إرادتهم ودون أمر منهم .. فلا يعتقد أحد أنه يستطيع فى هذا الموقف أن يخدع الله .. أو أن يقف فى مكان غير مكانه .. الخلق كلهم سيتفرقون كل مع الإله الذى عبد .. وبعد أن يتم ذلك يبدأ سؤال الأنبياء عن صدق بلاغتهم للناس عن منهج الله سبحانه وتعالى .. هل بلغوا أم لم يبلغوا ؟ .. فتأتى الشهادة بأنهم بلغوا .. وهنا يعطينا القرآن الكريم مشهد عيسى ابن مريم وتبليغه عن الله ، فيقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وإذ قال الله يا عيسى ابنَ مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمِّى إلهينِ من دونِ الله ﴾

(الآية : ١١٦ ـ من سورة المائدة)

هذا مثل لشهادة التبليغ من الرسل ، وبأنهم قاموا بالتبليغ بمنهج الله كما نزل من السماء .. والله أعلم بصدق بلاغ رسله .. ولكن ليكون حساب من انحرفوا عن المنهج عدلا .. وليكون هؤلاء الذين انحرفوا بالمنهج شهداء على أنفسهم .. فلا يستطيعون أن ينكروا ولا أن يدعوا أن هذا التحريف هو من فعل الرسل أو من بلاغتهم .. وعندما يقول الحق لعيسى عليه السلام هذا الكلام .. يأتى جواب عيسى منكرا على الذين قالوا هذا القول إنهم مبلغون عنه .. فيقول :

﴿ قال سبحانَك ما يكون لى أن أقولَ ما ليس لى بحقٍّ إن كنت قلته فقد علمتَه تعلم مافى نفسى ولا أعلم مافى نفسك إنك أنت علامُ الغيوب ﴾

(الآية ١١٦ ـ من سورة المائدة)

* * *

ويبدأ كلام عيسى بأن ينزه الله سبحانه وتعالى من أن يكون هناك معبود سواه ، فيقول : « سبحانك » .. أى تنزهت وتعاليت عن أن يكون هناك معبود غيرك فى هذا الكون .. ثم يؤكد عيسى صدق بلاغه عن الله فيقول :

﴿ ما يكون لى أن أقول ماليس لى بحق ﴾

أى أن عيسى يقول ياربى خلقتنى على الصدق .. فكيف أتجاوز مرحلة الكذب إلى مرحلة الادعاء .. وهى أن أدعى حقا ليس لى ..

ثم يلتمس عيسى من الله الشهادة فيقول :

﴿ إن كنت قلته فقد علمته ﴾

أى أنك ياربى تعلم كل ما نطقت به .. فإذا كنت قلت مثل هذا الكلام فلابد إنك علمته .. وإن كنت أخفيته فى نفسى ولم أقله ولكننى اعتقدت به ولم أظهره لأحد فانت ياربى علمته أيضا لأنك ياربى :

﴿ تعلم مافى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك إنك أنت علام الغيوب »

ثم يعطى عيسى عليه السلام البيان الحق لما قاله :

﴿ ماقلتَ لهم إلا ما أمرتَنى به أن اعبدوا الله ربى وربَّكم وكنتُ عليهم شهيدا مادمتُ فيهم فلما توفيتَنى كنت أنت الرقيبَ عليهم وأنت على كل شىء شهيدٌ ﴾

« الآية ١١٧ من سورة المائدة »

.. وهكذا نجد فى القرآن الكريم صورة لما سيحدث يوم القيامة من شهادة الرسل على أنهم بلغوا عن الله .. وكانوا صادقين فى بلاغهم .. ويتم هذا قبل أن يبدأ الحساب حتى تكون المحاسبة سبقها بلاغ المرسل .. ووصول هذا البلاغ إلى الواقفين فى يوم الحشر ليحاسبوا .. وذلك مصداقا لقوله تعالى :

﴿ وما كنّا معذبين حتى نبعثَ رسولا ﴾

« الآية ١٥ من سورة الإسراء »

وليشهد كل من فى يوم الحشر على صدق بلاغ الرسل .

وبعد أن تنتهى شهادة الرسل بأنهم بلغوا .. يبدأ الحق سبحانه وتعالى بالأشياء التى اتخذها الكفار آلهة من دون الله ـ وهل هذه الأشياء هى التى ادعت الألوهية ؟ .. أم أن الكفار هم الذين اختاروها آلهة لينفذوا أهواءهم .. وأول مايسأل الله سبحانه وتعالى الملائكة .. يقول الحق سبحانه :

﴿ ويوم يحشرهُمْ جميعا ثم يقول للملائكةِ أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون قالوا : سبحانك أنت وليُّنا من دونهم بل كانوا يعبدون الجنَّ أكثرهم بهم مؤمنون ﴾

« الآيتان ٤٠ و ٤١ من سورة سبأ »

وهكذا يتبرأ الملائكة من هذا الاتهام ، وينزهون الله سبحانه وتعالى من أن يكون هناك معبود غيره فيقولون : ﴿ سبحانك ﴾ .. أى تباركت وتعاليت وتنزهت من أن يعبد غيرك فى هذا الكون ..

ثم يقول الملائكة أنت ياربى إلهنا ونحن مقهورون على طاعتك لانملك المعصية .. ولم نقل لهؤلاء الكفار اعبدونا .. بل لم نكن ندرى شيئا عن عبادتهم لنا .. وكيف نفعل ذلك ونحن نسبح لك بالليل والنهار ..

■ ■ ■

عباد الشمس
وماذا يقولون

ويأتى الحق سبحانه وتعالى بالشمس والقمر والنجوم والجبال والحجارة وكل ما عبد الناس من دون الله .. ويسالهم هل انتم قلتم لهؤلاء اعبدونا من دون الله ؟.. وهنا يرد الجميع كل بدوره .. وكل شىء يوم القيامة سيتكلم ، لأن الله سينطق كل شيىء .. سينطق الحجارة والشمس والماء وكل مافى الكون ..

يقول هؤلاء جميعا كل بدوره يارب نحن لم نقل لهم شيئا .. نحن أعبد لك منهم ونحن نسبحك ليل نهار .. ونحن مقهورون على طاعتك .. سلهم يارب اى رسول ارسلناه إليهم ليبلغهم عن ألوهيتنا .. أو اى منهج بلغناه لهم ليطبقوه فى عبادتنا .. لا شيىء يارب .. فلا الشمس ارسلت رسولا إلى الناس تقول لهم اعبدونى .. ولا القمر أعد منهجا لعبادته .. ولا الأحجار ادعت أنها آلهة لابد أن يسجد لها .. بل كل هذه المخلوقات عابدة مسبحة لله .. تلعن الإنسان الكافر ، وتتمنى أن تفتك به . وتتم هذه المواجهة أمام خلق الله جميعا .. خصوصا أولئك الذين عبدوا هذه الأشياء حتى يكونوا شهداء على أنفسهم بشهادة الآلهة التى عبدوها .. انها لم تدع الألوهية ، ولم تطلب منهم أن يعبدوها .. وأنهم هم الذين اخترعوا هذا الزيف ليتبعوا شهواتهم وأهواءهم .. وهم الذين عبدوا هذه الآلهة ادعاء وكفرا فاستحقوا العذاب .. لأن الذنب من

أنفسهم والرغبة من داخلهم .. وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إذ تبرأ الذين اتُّبعوا من الذين اتُّبعوا ﴾

« الآية ١٦٦ من سورة البقرة »

وهكذا وأمام كل خلق الله تعلن كل المخلوقات التى اتخذها الإنسان زيفا آلهة أنها لاعلم لها بذلك .. وتقول عبدونا ونحن أعبد لله من القائمين بالأسحار .

ثم يأتى الحق سبحانه وتعالى إلى الذين أشركوا ويسألهم :

أين شركاؤكم .. أى أنه يأتى للمشركين ويطلب منهم أن يأتوا له سبحانه وتعالى بأولئك الذين أشركوهم فى الألوهية ..

ويعطينا القرآن الكريم عدة صور لسؤال هؤلاء المشركين فى الآخرة .. فيقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ ويوم نحشرهُم جميعا ثم نقولُ للذين أشركوا أين شركاؤكم الذين كنتُم تزعمون ثم لم تكن فتنتهُم إلا أن قالوا واللَّهِ رَبِّنَا ماكنا مشركين ﴾

« الآيتان ٢٢ و ٢٣ من سورة الأنعام »

وقوله تعالى :

﴿ وقيل ادعوا شركاءكم فدعوهُم فلم يستجيبوا لهم ورأوا العذابَ لو أنهم كانوا يهتدون ﴾

« الآية ٦٤ من سورة القصص »

هاتان الآيتان تبينان لنا موقف الذين أشركوا بالله يوم القيامة .. يسألهم الله أين شركاؤكم ؟ .. أحضروا ما أشركتم به .. فيتلفتون يمينا ويسارا ولايجدون شيئا .. فينقسم ردهم إلى قسمين .. قسم يكذبون على أنفسهم وهم يعتقدون أنهم يكذبون على الله .. فيقولون :

﴿ والله ربنا ما كنا مشركين ﴾

أى إنهم يكذبون على أنفسهم ويحسبون أنهم أفلتوا .. ولكن الله يعلم أنهم كاذبون .. ثم بعد ذلك تشهد عليهم ألسنتهم بأنهم نطقوا الكذب ..

أما القسم الآخر فيبحثون عن شركائهم يمينا ويسارا ، فلا يجدون شيئا ، ولايجدون أحدا .. فيقولون : ﴿ ضلوا عنا ﴾ .. أى تاهوا منا لانعرف مكانهم ولا يعرفون مكاننا .. ولو أن هؤلاء الذين زعموهم آلهة كانت لهم ألوهية أو شيء من الألوهية ماتركوهم فى هذا الموقف .. وهكذا يريهم الله أعمالهم حسرات ، ويفضحهم أمام خلقه جميعا ، وأمام أنفسهم حتى لا يستطيعوا المجادلة عند

الحساب .. فلا يستطيع أولئك الذين حرفوا منهج الله أن يقولوا إن الرسل قد بلغونا المنهج محرفا ، وليس لنا ذنب حتى يحاسبنا الله .. أو يقول أولئك الذين عبدوا غير الله إن هذه الأشياء التى عبدوها هى التى ادعت الألوهية .. وأنهم لاذنب لهم فيما حدث .. بل يظهر أمام الجميع ان هؤلاء الكفار هم الذين حرفوا .. وهم الذين اخترعوا هذه الآلهة وهم الذين وضعوا منهجا على هواهم .. وان المسألة كلها من أنفسهم .. وأنهم مسئولون عما اقترفوه ، وأن الحساب بالنسبة لهم عدل ..

وبعد أن ينتهى سؤال أولئك الذين كفروا وأشركوا يبدأ سؤال المؤمنين .. والله سبحانه وتعالى حينما طلب من الذين يؤمنون بالله أن يتجمعوا معا .. تجمع كل من آمن بالله .. سواء الذين عصوا أو اتبعوا المنهج .. الذين فسقوا أو الذين أطاعوا .. كل هؤلاء تجمعهم وحدة واحدة .. هو أنهم قالوا لا إله إلا الله سواء عملوا بها أو لم يعملوا .. ولكنهم شهدوا لله بالوحدانية .. فهؤلاء يقفون معا .. منهم من سيدخل الجنة ليخلد فيها .. ومنهم من سيدخل النار ليعذب بقدر ذنوبه ، ثم تدركه رحمة الله فيدخل الجنة ..

أى ليس بين الواقفين الذين قالوا لا إله إلا الله من سيخلد فى النار .. بل سينتهون جميعا إلى الجنة .. ولكن منهم من سيدخل النار ليعذب بذنوبه .. ولذلك لابد أن نعرف أن الله سبحانه وتعالى قد جعل للشهادة له وحده

بالألوهية ثمنا .. فلا يخلد فى النار من شهد أنه لا إله إلا الله .. وإلا لما كان هناك فرق بين من آمن بالله ومن كفر به .. ولابد أن يكون هناك فرق .. ولذلك يدخل الذين آمنوا بالله وعصوه النار ليعذبوا بقدر معاصيهم .

إلا ما شاء الله

وهنا يجب أن نلتفت إلى قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ فأما الذين شُقوا ففى النارِ لهم فيها زفيرٌ وشهيق خالدين فيها مادامت السمواتُ والأرض إلا ماشاء الله ربُّك إن ربك فعال لما يريدُ . وأما الذين سُعدوا ففى الجنة خالدين فيها مادامت السمواتُ والأرض إلا ماشاء ربك عطاء غير مجذوذ ﴾

« الآيتان ١٠٦ و ١٠٧ من سورة هود »

هذا الاستثناء الموجود فى الآيتين إنما وضع لمن آمنوا بالله وعصوه .. فمعنى الاستثناء إخراج شىء مختلف عن شىء كان عاما ـ فيقال قام القوم إلا فلانا .. أى أننا أخرجنا فلانا هذا الذى كان جالسا مع القوم من أنه قام معهم .. بل خالفهم فيما فعلوا .. أو أننا نفينا عنه مافعلوه .. وإلا ، إما أن تنفى شيئا مثبتا .. أو تخرج من

منفى فيثبت .. فإذا قلنا قام القوم إلا زيدا أثبتنا عن زيد القيام .. وإذا قلنا ما قام القوم إلا زيدا أثنينا لزيد القيام ..

الله سبحانه وتعالى حين يتكلم عن خلقه فى الآخرة يقول :

﴿ يوم يأتِ لا تكَلَّمُ نفس إلا بإذنه فمنهم شقيٌّ وسعيدٌ ﴾ ..

« الآية ١٠٥ من سورة هود »

إذن قسم الله الخلق إلى قسمين : شقى وسعيد .. والله يريد أن يعطينا ماهو حكم الشقى وما هو حكم السعيد ؟ .. الشقاء نوعان : شقاء لأنه كفر وهذا هو شقاء القمة .. وشقاء لأنه آمن ولكنه أسرف على نفسه فلم يطع ..

* * *

إذن هناك نوعان من الشقاء .. والنوعان مختلفان فى الجزاء .. وإلا لما كان لكلمة التوحيد جزاؤها فى الآخرة .. والسعادة أيضا قسمان : .. سعادة القمة لإنسان آمن وعمل كل العمل الصالح .. وسعادة لأن الإنسان آمن وعمل بعض العمل وترك بعض العمل .. إذن هناك من تركوا بعض العمل ، وسيغفر الله لهم برحمته ..

نأتى للآية الكريمة :

﴿ فأما الذين شَقوا ففى النارِ لهم فيها زفيرٌ وشهيق خالدين فيها مادامت السمواتُ والأرض إلا ماشاء ربُّك إن ربك فعال لما يريد . واما الذين سعدوا ففى الجنة خالدين فيها مادامتْ السمواتُ والأرضُ إلا ماشاء ربك عطاءً غير مجذوذ ﴾

« الآيتان ١٠٦ و ١٠٧ من سورة هود »

لايخرجون منها .. الذين شقوا شقاء الكفر خالدين فى النار من أولها .. أبدا ولايخفف عنهم العذاب .. والذين شقوا شقاء عصيان فى التكليف يدخلون النار أولا ليعذبوا بقدر ما عصوا .. ثم بعد ذلك يدخلون الجنة .. وهذا هو الاستثناء الذى عبر عنه الحق سبحانه وتعالى بقوله :

﴿ إلا ما شاء ربك ﴾

والاستثناء هنا يكون من آخر العذاب .. أى أن الذين شقوا بالكفر أو بالمعصية يبدأون العذاب معا .. ثم لايخلد العاصون فى النار .. بل تدركهم رحمة الله سبحانه وتعالى فيخرجهم منها فى الجزء الأخير من العذاب ويدخلهم الجنة .. وبهذا يكون الخلود بالنسبة للمؤمن

العاصى قد خدش من آخر العذاب .. أما بالنسبة للذين سعدوا .. السعادة الكاملة هو أن يدخل المؤمن الطائع الجنة من أول يوم ويبقى خالدا فيها ..

إذن فالذين لن يدخلوا الجنة من أول يوم هؤلاء أشقياء لأنهم دخلوا النار فترة أولية .. فإذا كان الاستثناء فى الشقاء من آخره .. فإن الاستثناء فى السعادة من أول دخول الجنة .

وكما قلنا يقف المؤمنون الذين شقوا والذين سعدوا معا لأنهم جميعا آمنوا بوحدانية الله ... ويسألهم الله سبحانه وتعالى عن إيمانهم فيقول الجميع : انهم مؤمنون صالحون . حينئذ يكشف عن ساق مصداقا لقوله تعالى :

﴿ يوم يُكشف عن ساقٍ ويُدعون إلى السجودِ فلا يستطيعوَن خاشعة أبصارُهم ترهقهم ذلة وقد كانوا يُدعون إلى السجود وهم سالمون ﴾

« الآيات ٤٢ ، ٤٣ من سورة القلم » .

وإذا أردنا أن نفهم معنى هاتين الآيتين الكريمتين فلابد أن نعرف معنى : « يكشف عن ساق » .. العرب كانوا يستخدمون الكشف عن الساق تعبيرا عن الجد ، وأنه

لاهزل فى هذا الموقف .. ذلك لأن الإنسان إذا أراد أن يعمل عملا جادا فيه مشقة .. فإنه يرفع الثوب ويكشف عن ساقيه حتى لايعيقهما الثوب عن الحركة الجادة التى يتطلبها العمل .. ولذلك يعبر بالنسبة للمواقف الجادة بالكشف عن الساق .. يقال ساعتها كشفت عن ساقى وفعلت كذا .. وموقف القيامة هذا الذى نتحدث عنه هو موقف فى غاية الجد ..

فمعنى : ﴿ يوم يُكشف عن ساق ﴾

« من الآية ٤٢ سورة القلم »

أى ساعة يأتى الحسم والجد .. حين يقول الجميع عبدنا وما عصينا .. يقال لهم اسجدوا لله فيسجد المؤمنون الطائعون وحدهم .. أما المؤمنون الذين عصوا فتكون ظهورهم كألواح من الخشب غير قابلة للانثناء ولا تمكنهم من السجود .. ويحاولون السجود جاهدين ، ولكنهم لايقدرون .. حينئذ يقال لهم : انتم عصيتم ولذلك لم تمكنوا من السجود .. فيحاولون المجادلة فيقال لهم هل ترضون بشهداء عليكم ؟ .. يلتفت هؤلاء يمينا ويسارا فلا يجدون أحدا من الذين سيشهدون فيطمعون ويقولون نعم نقبل الشهادة ، وهم يحسبون بذلك أنهم ناجون .. وإذا بجلودهم وأيديهم وأرجلهم وألسنتهم تشهد عليهم .. مصداقا لقوله تعالى :

﴿ حتَّى إذا ما جاءوها شهدَ عليهم سمعهُم وأبصارهُم وجلودهم بما كانوا يعملون وقالوا لجلودِهم لم شهدتُم علينا قالوا أنطقنا الله الذى أنطق كلَّ شىءٍ ﴾

« الآيات ٢٠ ، ٢١ من سورة فصلت »

حينئذ يحس هؤلاء المؤمنون العصاة بالخزى .. ويعبر الحق سبحانه وتعالى عن حالتهم بقوله تعالى : خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة » .. ثم نعلم أن هؤلاء الذين لم يكونوا مواظبين على الصلاة متمسكين بها فى أوقاتها من قوله تعالى :

﴿ وقد كانوا يُدعون إلى السجودِ وهم سالمون ﴾

« من الآية ٤٣ سورة القلم »

هل كانوا يدعون إلى الصلاة فى الدنيا ، وهم قادرون على السجود .. لأن الدنيا دار تكليف .. ييسر للإنسان فيها الطاعة .. كما تيسر له المعصية .. هؤلاء كانوا يدعون إلى الصلاة .. إما بسماعهم الآذان أو بتذكيرهم بمواقيت الصلاة .. وكانوا يقدرون على السجود .. ولكنهم لم يواظبوا على صلاتهم .

ووضع الميزان

وعندما تنتهى كل هذه المشاهد يوضع الميزان ، ويبدأ الحساب .. والميزان هنا ليس ميزانا ماديا .. ولكنه ميزان معنوى .. فعدل الله لايحتاج لميزان مادى .. ذلك أننا فى أمور الحق فى الدنيا لانزن العدل إلا بميزان معنوى .. وعندما لايحكم القاضى بين الناس فإنه لاياتى بميزان يضع فيه حجج هذا وحجج ذلك .. بل يزن الأمور ثم يصدر الحكم .. وقد سئل على بن أبى طالب .. كيف يحاسب الله الناس كلهم فى وقت واحد .. قال كما يرزقهم جميعا فى وقت واحد .

هناك فى الحساب من لايكلمهم الله .. وهناك من ينساهم من رحمته وهناك من لايرون نور الله أبدا بظلمهم .. ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (من حوسب هلك) .. ولكن كيف يستقيم هذا مع الآية الكريمة :

﴿ فأمَّا من أُوتى كتابَه بيمينه فسوف يحاسَب حساباً يسيرا وينقلب إلى أهله مسروراً ﴾

« الآيات ٧ ، ٨ ، ٩ ، من سورة الإنشقاق »

نقول ان الحساب اليسير الذى سيحاسب به بعض المؤمنين لايعتبر حسابا ، ولكنه عرض لرحمة الله .. وتوضيح لتجليات لطف الله على المؤمنين .. كأن يقال للمؤمنين أنت فعلت كذا وكذا وقد غفر لك الله .. ولكن

الحساب الحقيقى الذى يحدث فيه نقاش ومحاسبة إنما معناه أن صاحبه مستحق للعقوبة ..

أما الحساب الذى ليس فيه مناقشة فإنه يكون يسيرا ويكون كله ثوابا ورحمة .. كأن تقول لإنسان عزيز عليك أنت فعلت كذا وكذا من باب العتاب الذى ليس فيه غضب ولا تقريع بل فيه تسامح .

أما من استحقت عليه العقوبة من المؤمنين العاصين أو غير المؤمنين .. فإن حسابه يكون رهيبا .. والحساب يشتمل على ثلاثة أجزاء رئيسية : جزء مدون فيه العمل الصالح للعبد .. وجزء مدون فيه المعاصى التى ارتكبها العبد .. وجزء مدون فيه نعم الله عليه .. لأن النعمة تدخل فى الحساب .. ونعم الله عادة تجب كل العمل الصالح .. فإذا حوسب العبد بعمله الصالح فقط دون رحمة الله وفضله .. فإن نعمة واحدة من النعم التى أنعمها الله عليه تزيد على كل العمل الصالح الذى قدمه فى الدنيا .

على أنه يسبق الحساب والصراط الذى يضرب فوق النار ليمر عليه خلق الله كلهم .. يسبق هذا مشاهد تحدث أمام الناس جميعا .. يأتى الله خلالها بائمة الكفر وينزعهم أمام الناس جميعا ليذلهم .. ويأتى الله بالمتكبرين فى الدنيا ويدوس عليهم الخلق .. وتحدث مشاهد كثيرة قبل أن يتم الحساب .. ويذهب أهل النار إلى النار .. وأهل الجنة إلى الجنة ..

■ ■ ■

■ الفصل الخامس ■

الحساب

مازال الحديث عن مشاهد يوم القيامة وما سيحدث فيها .. ففى ذلك اليوم هناك مشاهد كثيرة ذكرها الله لنا فى القرآن الكريم .. وبينتها أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم .. الناس حين يحاسبون يوم القيامة تختلف صورة الحساب .. فإن المؤمن العاصى والكافر .. كل منهم له حساب . وشفاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم التى أعطاها الله له يوم القيامة .. والتى قال عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم : (شفاعتى لأهل الكبائر من أمتى) .. لابد أن نعرف أن المشفوع له لابد أن تكون له خصلة خير عند رسول الله صلى الله عليه وسلم .. خصلة الخير هذه التى توجب شفاعة الرسول للعاصى .. لذلك يقول صلى الله عليه وسلم : (لا تحقرن طاعة ، ولا تحقرن معصية ، فالله أخفى ثلاثا فى ثلاث : (رضاه فى طاعته .

وغضبه فى معصيته .. وأسراره فى خلقه) - أى أن الانسان لايجب أن يحقر طاعة ما فقد تكون هذه الطاعة البسيطة التى لا يلقى اليها بالا ولا يهتم بها .. هى السبب فى دخوله الجنة .

لذلك إذا كانت هناك طاعة متاحة لك ولو أى طاعة بسيطة فسارع فى فعلها .. لأنها قد تكون هى التى ستأتى لك بالرضا .

* * *

وقد أعطانا رسول الله صلى الله عليه وسلم مثلا لذلك فى قصة الرجل الذى سقى كلبا فى يوم حر شديد .. فقد وجد الرجل بئرا ونزل وشرب منها .. وعندما صعد وجد كلبا يلهث من الحر والعطش .. فنزل الرجل الى البئر وملأ حذاءه ماء ثم صعد وسقى الكلب حتى ارتوى فادخله الله الجنة بهذا العمل .

إذن مطلوب منا ألا نحتقر أى طاعة ولا نحتقر أى معصية .. فقد تكون هى القشة التى قصمت ظهر البعير .. فلا يحتقر إنسان معصية مهما كانت بسيطة ، ويقول سيغفرها الله لى ، فقد تؤدى به هذه المعصية إلى النار .. كما بين لنا الرسول الكريم فى قوله : (دخلت امرأة النار فى هرة حبستها .. لا هى أطعمتها ، ولا هى سقتها ، ولا هى تركتها تأكل من خشاش الأرض) .

أى أن المرأة دخلت النار بسبب تعذيبها قطة .. ولذلك لا تستهينوا بأية معصية .. فقد دخلت امرأة النار فى

تعذيب قطة .. ولا تحتقروا عبدا من عباد الله بسبب مظهره ، أو بساطة مركزه الدنيوى .. لانك لا تعرف ما السر الذى أخفاه الله فيه .. ولا المنزلة التى لهذا العبد عند ربه .. فقد يكون مستجاب الدعوة ، فيقبل الله دعوته فيك .

نأتى بعد ذلك إلى فرق الحساب بين عباد الله .. الأنبياء والشهداء لا حساب لهم .. الأنبياء معصومون من الذنوب .. والشهداء غفرت لهم ذنوبهم ساعة استشهادهم .. ولذلك هؤلاء لا يحاسبون .. ويكون سؤال الأنبياء فى الآخرة هو عن تبليغ أممهم بالمنهج .. وهل بلغوا رسالة الله أم لم يبلغوها .. وينتهى سؤالهم عند هذا الحد .. أما المؤمنون فانهم يحاسبون حسابا يسيرا ، ولا يكون الحساب أكثر من عتاب صغير وعرض لرحمة الله عليهم .. يقال لهم لقد فعلتم كذا وكذا ، ولكن الله غفر لكم .. ولذلك تكون المناقشة معهم بتلطف وثواب وتكون عرضا لكرم الله وفضله .. أكثر مما تكون بشدة أو بعنف .

بل إن هؤلاء المؤمنين يضيف الله لهم من فضله بأن يلحق بهم ذرياتهم مصداقا لقوله تعالى :

﴿ والذين آمنُوا واتَّبعتْهُمْ ذُرِّيتَهُم بإيمانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيتَهُمْ وما أَلَتْنَاهُمْ من عَملِهِمْ من شَىءٍ ﴾

(الآية ٢١ ـ سورة الطور)

هنا وفى ساعة الحساب يعطى المؤمنون من فضل الله الكثير .. فلو أن لهؤلاء المؤمنين ذرية صالحة مؤمنة .. فان الله بفضله يلحق هذه الذرية بآبائهم وأمهاتهم بشرط أن تكون الذرية مؤمنة .. فالذرية لو لم تؤمن انفصلت عن العمل الصالح لآبائها كما حدث بالنسبة لابن نوح عليه السلام .. فقد كفر ابن نوح ورفض الإيمان .. فأغرقه الطوفان مع الكافرين .. وعندما اتجه نوح إلى السماء وطالب بنجاة ابنه وأن يلحق به قال الله سبحانه وتعالى :

﴿ يانوحُ إنه لَيْسَ من أهْلِكَ . إنَّه عملٌ غيرُ صَالح ﴾

(الآية ٤٦ من سورة هود)

وهكذا انفصل الابن عن النبى الأب لأنه عمل غير صالح .. الذرية المؤمنة يوم القيامة يلحقون بآبائهم الصالحين .. وهذه ليست كرامة للذرية ولكنه كرامة للآباء الذين ألحقوا بهم .. وما دام الابن يشترك فى الإيمان مع الأب فانه يلحق بالأب الصالح ولو اختلف عملهما .. وذلك لا يؤثر فى منزلة الأب الصالح ولا ينقص من عمله شيئا .. ولذلك لا يقسم عمل الأب الصالح على جزءين : جزء له وجزء لابنه .. بل يبقى عمل الأب الصالح تاما وكاملا ومنزلته العالية كما هى ويلحق به الابن إكراما للأب وحسن إيمانه .

* * *

يبقى بعد ذلك المسلم العاصى ، وهذا يحاسب على حسب معاصيه .. ويؤتى له بكتابه فيه نعم الله عليه ومعاصيه التى ارتكبها فى الدنيا وطاعاته .. ومتى حوسب فانه دخل النار .. لأن الحساب فى هذه الحالة بغير فضل الله ورحمته يؤدى إلى جهنم والعياذ بالله .

أما الكافر فانه يحاسب حسابا عسيرا .. ينساه الله من رحمته وينساه من فضله وينساه من نوره .. ويظل هذا الكافر يكذب على الله ويتخبط فى إجابته .. وهو فى الحقيقة يكذب على نفسه لأن الله لا يخدعه أحد فهو عليم بكل شىء .. ويحس الكافر أنه يكره نفسه ويتمنى زوالها .. ويتمنى لو كان ترابا فيأتيه ما يزيد عذابه .. فيقال له ان كنت تمقت نفسك وتكرهها كراهية كبيرة ، فان كراهية الله لك أكبر .. ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إن الَّذينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ الله أكبرُ من مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ ﴾

(الآية ١٠ من سورة غافر)

ويظل الكافر فى ظلام الكفر يتخبط فى كل شىء .. فى كلامه وفى حركته حتى يلقى به فى النار .. على أن أول ما يحاسب به العبد هو إيمانه بالله .. فان كان قد آمن يبدأ الحساب على تنفيذ متطلبات الإيمان .

وأول متطلبات الإيمان هى الصلاة .. وذلك هو المطلوب الدائم من العبد .. المطلوب الذى لا يسقط أبدا ..

فالصلاة قائمة دائمة لا تسقط .. فالحج يسقط بعدم الاستطاعة صحيا أو ماديا .. والصوم يسقط بالمرض والسفر .. والزكاة تسقط بعدم وجود المال .. وشهادة لا إله إلا الله محمد رسول الله تعالى مرة واحدة .. ولكن الصلاة لا تسقط عن الإنسان مريضا كان أو سليما .. غنيا كان أو فقيرا .. صغيرا كان أم كبيرا .. مسافرا كان أم باقيا فى مكانه .. فهى المطلوب الدائم للإيمان .. ولذلك إذا صلحت الصلاة صلح عمل العبد .

على أنه يوم القيامة يكون هناك حساب على حقوق الله .. وحساب على حقوق العباد .. الحساب على حقوق الله هو على المعاصى وعلى مخالفة منهج الله .. والحساب على حقوق العباد هو ظلم الناس فى الدنيا ، أو الاعتداء على حقوقهم .. وفى ذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : (أتدرون من المفلس ؟ قال الصحابة : يارسول الله المفلس من لا دينار عنده ولا درهم .. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (بل المفلس من أمتى هو من يأتى يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ، ولكنه شتم هذا وقذف فى حق هذا ، وأكل مال هذا ، وسفك دم هذا ، فيعطى كل واحد هذا من حسناته وهذا من حسناته . فان فنيت حسناته قبل أن يقضى عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه وطرح فى النار) .. أى أن المفلس هو الذى يُذهب طيباته بالاعتداء على الناس .. والله سبحانه وتعالى يأتى لمن يشاء ويؤدى عنه حقوقه للآخرين حتى يدخل الجنة .

على أن الله سبحانه وتعالى حين يروى لنا مشاهد يوم القيامة فى القرآن الكريم .. فانه يريد أن يعطينا صورة لبعض ما سيحدث فى هذا اليوم العظيم .. علها تكون عبرة لنا وعظة ، وخصوصا أن كل هذه المشاهد ستتم أمام كل من فى الحشر فى ذلك اليوم العظيم ، وستكون فضيحة علنية .

وقد رأينا فى الفصول السابقة كيف أن أولئك الذين اجتمعوا على الإثم فى الدنيا .. وكيف سيصبحون بعضهم لبعض عدوا فى الآخرة .. وكيف سيأتى الله سبحانه وتعالى بالكفار والمنافقين ويحاسبهم .. وما هو الحوار الذى سيدور .

ويأتى الله سبحانه وتعالى ينتزع أئمة الكفر من بين أولئك الموجودين فى المحشر .. فيقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ والشَّياطينَ ثم لَنُحضِرنَّهُمْ حولَ جهَنَّم جِثِيًا ثمّ لَنَنْزِعَنَّ من كلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أشَدُّ على الرَّحْمَنِ عِتيًا ﴾

(الآيتان ٦٨ و ٦٩ من سورة مريم)

وهكذا نرى مشهدا آخر يوم القيامة .. الكفار وهم حول نار جهنم ساجدين من الذل ومن الهوان .. ومن وسط هؤلاء الكفار والعاصين يأتى الله سبحانه وتعالى إلى أئمة

الكفر ، أولئك الذين كانوا يحاربون دين الله فى الأرض .. ويحاولون أن يضلوا المؤمنين .. نجدهم فى كل مكان يسخرون من الذين آمنوا ، ويسفهون منهج الله .. وهم فى ذلك أشداء ، أى يستخدمون كل ما لديهم من قوة .. وكل ما يملكون من وسائل .. فالإنسان حين يكون شديدا يجمع كل قواه لمواجهة الحدث الذى يشغله .. وهؤلاء فى الدنيا كانوا أشداء على دين الله .. يستخدمون مافى إمكانهم من وسائل لمحاربة هذا الدين .. والحقيقة أن الكفار هم أغبى خلق الله من ناحية المنهج .. فالله سبحانه وتعالى يستخدمهم فى إثبات منهجه .. بينما هم يحسبون أنهم يفسدون هذا المنهج .

اقرأ قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ . وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ . وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴾

(الآيات ٢٩، ٣٠، ٣١ من سورة المطففين)

هذه صورة يعطيها الله سبحانه وتعالى لنا للكفار انهم فى الدنيا يسخرون من المؤمنين ، ويتغامزون عليهم .. إلى آخر ما نراه فى هذه الأيام مما يحدث بالنسبة للمؤمنين ، وهم يحسبون أنهم يحاربون منهج الله .

ولكن الحقيقة غير ذلك تماما .. فهؤلاء الكفار انما يثبتون منهج الإيمان ، ويكونون هم أنفسهم دليلا على صدق القرآن .. وأنه منزل من الله سبحانه وتعالى .. لأن الله أخبرنا فى كتابه العزيز بأن هؤلاء سيسخرون ويتغامزون على المؤمنين فى الدنيا .. ولو أن لديهم فطنة لما اتخذوا هذا السلوك .. وحينئذ كنا سنقول : ان القرآن قد قال لنا : ان المجرمين والكفار سيسخرون من الذين آمنوا فى الدنيا ، ولم يسخر منا أحد ، ولم يتغامز علينا أحد .. ولكن كونهم سخروا وتغامزوا قد أعطونا الدليل على صدق منهج الله .. لأنهم فعلوا ما أنبأنا الله أنهم سيفعلونه .. وبذلك كانوا هم أنفسهم دليلا على صدق المنهج .. لانهم جاءوا وفعلوا ما أخبرنا الله أنهم سيفعلونه .. ولا يجب أن يضيق صدر المؤمن بهذه الأفعال .. بل كلما حدثت قال المؤمن سبحان الله .. لقد أخبرنا الله أنهم سيفعلون وفعلوا .. وصدق الله العظيم .. وأصبح هؤلاء المجرمون مثبتين للإيمان وهم يحسبون أنهم سيهدمونه .. تماما كقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّماواتِ والأَرْضِ ولا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وما كنتُ متَّخِذَ المضلِّين عَضُدا ﴾

(الآية ٥١ من سورة الكهف)

* * *

فإذا جاء هؤلاء المضلون بنظريات تتعارض مع كلام الله عن خلق السموات والأرض وخلق الإنسان .. نقول لو لم يأت هؤلاء لقلنا أخبرنا الله عن المضلين الذين سيجادلون فى الخلق فاين هم .. ولكن كونهم أتوا .. واضلوا بما قالوه عن أن الإنسان أصله قرد ، وأن السموات والأرض أصلها كذا وكذا .. محاولين بذلك التشكيك فى منهج الله .. نقول لهم : لقد ثبتم المنهج فى قلوبنا .. لأن الله قد أخبرنا بما ستفعلونه ، وجئتم أنتم تصديقا لمنهج الله وفعلتموه .. فشكرا لكم أنكم كنتم دليلا على صدق المنهج .

ينزع أئمة الكفر

يأتى الله سبحانه وتعالى يوم القيامة ، وينزع أئمة الكفر هؤلاء .. ومعنى ينزعهم .. أنه يأخذهم بالقوة والقهر دون إرادتهم .. فكأنهم ينزعون نزعا .. ويأتى بهؤلاء على رءوس الأشهاد فى المحشر .. ليرى الناس ـ كل الناس ـ هؤلاء الذين كانوا أعزاء فى الدنيا يبارزون الله بالمعاصى .. وهم فى قمة الذل والهوان يوم القيامة .. وكأن الله يأخذهم من قمة العز والنعيم التى كانوا فيها فى الدنيا .. إلى قمة الذل والهوان فى الآخرة وأمام خلق الله جميعا .

على أننا قبل أن نمضى فى الحديث عن مشاهد يوم القيامة .. لابد لنا من وقفة عند حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لا يدخل أحدكم الجنة بعمله إلا أن

يتغمده الله برحمته ، قالوا حتى أنت يا رسول الله قال : حتى أنا) .

إذا كانت هذه هى الحقيقة فلماذا الحساب ؟ .. وإذا كان الإنسان لا يدخل الجنة بعمله فلماذا العمل الصالح شرط لدخول الجنة ؟ .. ألم يكن من المنطقى أن الله سبحانه وتعالى يدخل من يشاء الجنة برحمته وكفى ؟ .

نقول للذين يثيرون هذا الكلام أنكم لم تفهموا معنى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم .. ذلك أن الأعمال الصالحة عند الله سبحانه وتعالى لا تزيد من ملكه شيئا .. والعمل الصالح مهما بلغ لا يمكن أن يتكافأ مع النعم التى أوجدها الله سبحانه وتعالى .. فالنعم الموجودة فى هذا الكون .. والنعم التى ينعم بها الله علينا لا يمكن أن تتساوى معها الأعمال الصالحة فى الدنيا مهما كانت .

ولقد قيل إن هناك عبدا من عباد الله كان يعبد الله ليلا ونهارا .. ولا يكف عن الصلاة والتسبيح والركوع والسجود .. حتى إنه قبض وهو ساجد .. وعندما جاء الحساب يوم القيامة قيل له ادخل الجنة برحمة الله .. فقال بل أدخل الجنة بعملى .. فجاءوا بالميزان ووضعت فيه كل الأعمال الصالحة للرجل .. ووضع فى الكفة الأخرى نعمة النظر وحدها ، فرجحت نعمة النظر .. فقال الرجل أدخل الجنة برحمة الله .. فالعمل الصالح الذى يقوم به الإنسان فى الدنيا لا يتساوى مع نعم الله عليه .

والإنسان المؤمن عندما يتبع منهج الله فانه لا يعمل

عملا ينفع الله جل جلاله .. ولكن منهج الله لنفع الإنسان .. يعطيه الحياة الطيبة فى الدنيا ، ويمنع عنه كثيرا من الشرور التى يتعرض لها إذا لم يتبع المنهج .. فكما قلنا من قبل : ان المنهج يحمى الإنسان من المجتمع .. وينقله من حياة الغابة إلى الحياة الآمنة المطمئنة .

تماما كما تقول لابنك ذاكر حتى تنجح .. فإذا نجحت فلك مكافأة .. المذاكرة لا تفيد الأب ، ولكنها تفيد الابن فى مستقبله .. وتزيد أمامه فرص الحياة لكى ينشأ ، وهو قادر على أن يكسب قوته .. وقادر على أن يتقدم فى المجتمع إلى أكبر المراكز .. إذن فالمذاكرة للابن وليست نفعا للأب .. فإذا أعطاه الأب مكافأة على نجاحه ، فذلك فضل من الأب على ابنه .

والله سبحانه وتعالى حين وضع لنا المنهج .. لم يضعه ليحقق لنفسه تبارك وتعالى نفعا .. فأنت حين تصلى لا تفيد الله صلاتك .. وإنما تعود عليك هذه الصلاة بالنفع بأنك تنضبط انضباط عبادة .. يجعل الله معك .. ينصرك وقت الشدة ، ويسترك وقت الفضيحة ، ويرزقك وقت العسر .

إذن فهذه الصلاة التى جعلت الله سبحانه وتعالى فى جانبك أنت الذى استفدت منها .. بأن أخذت قدرة الله إلى جانبك .

ومن منا لا يحتاج إلى قدرة الله .. تأتيك وقت الشدة يوم تتخلى عنك الأسباب كلها .. ولا يبقى إلا قدرة الله

سبحانه وتعالى لينجيك .. تأتيك وقت هذه الشدة لتفتح لك من أبواب النجاة مالم تكن تدرى ولا تعرف .. فمنهج الله إذن هو لنفع الإنسان .. والجزاء من الله على اتباع المنهج يوم القيامة هو من فضل الله على عباده .

الرحمة .. والجنة

فإذا كان الأمر كذلك .. وكان العمل الصالح لا ينفع إلا صاحبه .. وكان الموقف يوم القيامة أن كل الأعمال الصالحة لا تتساوى مع نعم الله .. فلماذا الحساب ؟ لأن الله سبحانه وتعالى جعل هذه الأعمال الصالحة شرطا لفضله ورحمته .. فأنت إذا لم تقدم هذا العمل الصالح فى الدنيا .. فانك لا تستحق ولا تدخل ضمن من يستحقون فضل الله ورحمته فى الآخرة .. ولذلك فلكى تحصل على الفضل ، ولكى تستحق الرحمة .. لابد أن تقدم العمل الصالح أولا .. فإذا لم تقدمه منع عنك هذا كله .. وهذا هو معنى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لا يدخل أحدكم الجنة بعمله) .. أى أن هذه الأعمال الصالحة عندما توضع فى الميزان لا تدخل صاحبها الجنة .. ولكنها شرط لكى يشمله الله برحمته ، فيدخل الجنة ، ويفيض الله من فضله عليه ما يشاء .

على أننا لابد أن نتنبه إلى أن الله سبحانه وتعالى قد بين لنا هذا الفضل فى الدنيا .. فجعل الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة مثل .. وجعل السيئة بمثلها فقط ، ووضع معها المغفرة والرحمة والتوبة ليمحو منها

الكثير .. ولو أننا كنا نحاسب بعدل الله وحده .. لكانت السيئة تساوى الحسنة وما تدخلت مغفرة الله ورحمته لتمحو السيئات وتزيلها .

ولكن الله سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا ونحن فى الدنيا إلى أنه يعاملنا بفضله .. ولو عاملنا بعدله لهلك كل من فى الأرض بذنوبهم .. مصداقا لقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ ولَوْ يُؤَاخِذُ الله النَّاسَ بظُلْمِهِمْ ماتَرَكَ عَلَيْهَا من دابَّة ﴾

(الآية ٤٥ من سورة فاطر)

إذن فالحق سبحانه وتعالى ونحن فى الدنيا يعاملنا بالفضل .. فإذا كنا فى الآخرة .. كان فضله أهم وأشمل .. فكل نعمة من نعم الله فى الجنة هى من فضل الله علينا ، وليست حقا مكتسبا لنا .

وإذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو قمة الإيمان ، وقمة العمل الصالح ، والمعصوم من الله سبحانه وتعالى يقول : (حتى ولا أنا) .. فهو تشبيه يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعطيه لنا لنتأكد أنه مهما بلغت الأعمال الصالحة .. فالإنسان محتاج لفضل الله ليدخل الجنة .. فرسول الله صلى الله عليه وسلم أكثرنا عملا وأقلنا ذنبا .. وأقربنا إلى الله سبحانه وتعالى .. فإذا كان الرسول بكل هذه الصفات سيدخل الجنة برحمة الله ..

فمن باب أولى ألا يدعى عبد أو يقول أنه سيدخل الجنة بعمله .. بل كلنا محتاجون لفضل الله .. ذلك الفضل الذى يمحو السيئات .. ويضاعف الحسنات أضعافا مضاعفة .

على أن هناك صورا أخرى أخبرنا الله سبحانه وتعالى بها فى القرآن الكريم .. تأمل قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وقالَ الذين كَفَرُوا رَبَّنَا ﴾

(من الآية ٢٩ من سورة فصلت)

أى أن الذين كفروا بالله سيأتون يوم القيامة ويؤمنون .. طبعا ما داموا قد رأوا كل شىء بعين اليقين .. ماذا يقول الذين كفروا ؟ :

﴿ رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلاَّنَا من الجنِّ والإنْسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدامِنَا لِيكُونَا من الأَسْفَلِينَ ﴾

(الآية ٢٩ من سورة فصلت)

وهكذا تكون العداوة سافرة بين الإنسان وبين شياطين الجن والإنس يوم القيامة .. ويعلم الإنسان علم اليقين أن أولئك الذين كانوا يزينون له المعصية .. الذين اتخذهم أخلاء فى الدنيا كانوا أعدى أعدائه .. وكانوا يريدون به السوء والهلاك .. وكانوا يدفعونه دفعا إلى المعصية والعذاب .. وهؤلاء يطلق الله سبحانه وتعالى عليهم فى القرآن الكريم اسم القرين .

ولقد سمعنا أشياء كثيرة تقال عن القرين .. فهناك من يقول إنه خلق مثل الإنسان .. على نفس شبهه وله صوته .. ويلازم الإنسان طول حياته بحيث يعرف كل شيء عنه ، ولكنه يعيش مدة أطول منه .. ولذلك يقولون أن الذين يمارسون تحضير الأرواح .. إنما يقومون بتحضير هذا القرين الذى يأتى ليتكلم بنفس صوت الميت ، ويحكى كل شيء عن حياته ، لأنه كان يلازمه فيها .. حتى يعتقد الحاضرون أن روح الميت هى التى تتكلم .

والحقيقة أن الناس قد أخطأوا فى فهم معنى القرين .. مع أن الله سبحانه وتعالى قد شرح لنا فى آيات كثيرة معنى القرين .. فقال تعالى :

﴿ ومَنْ يَعْشُ عن ذِكْرِ الرَّحْمنِ نُقَيِّضْ له شَيْطَانًا . فَهُوَ له قَرِينٌ . وإنَّهم لَيَصُدونَهُمْ عن السَّبيلِ ، ويَحْسَبُون أَنَّهُمْ مُهْتَدونَ . حتَّى إذا جَاءَنَا قالَ يالَيْتَ بَيْنى وبَيْنَك بُعْدَ المَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ القَرينُ ﴾

(الآيات ٣٦،٣٧،٣٨ من سورة الزخرف)

وقوله عز وجل :

﴿ الَّذين يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِءاءَ النَّاسِ ، ولا يُؤْمِنُون بالله واليَوْمِ الآخِرِ . ومَنْ يَكُنْ الشَّيْطَانُ له قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا ﴾

(الآية ٣٨ من سورة النساء)

وقوله تعالى :

﴿ قالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ ولكنْ كانَ فى ضَلالٍ بَعِيدٍ ﴾

(الآية ٢٦ من سورة ق)

وقول الله تبارك وتعالى :

﴿ وقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مابَيْنَ أَيْديهِمْ ، وما خَلْفَهُمْ ، وحَقَّ عَلَيْهِمُ القَوْلُ فى أُمَمٍ قد خَلَتْ من قَبْلِهِمْ من الجنِّ والإنْسِ . إنَّهم كانُوا خَاسِرينَ ﴾

(الآية ٢٥ من سورة فصلت)

وهكذا نرى أن القرآن الكريم .. قد بين لنا بما لا يدع مجالا للشك والتأمل أن القرين هو من شياطين الجن والإنس .. وأن مهمته هو أن يبعد الناس عن منهج الله .. وأن يزين لهم المعصية وأن يوسوس لهم بالسوء .

■ ■ ■

مهمة القرين

هذه هى مهمة القرين كما وضحها لنا القرآن الكريم .. ولكل إنسان منا قرين .. يحاول أن يدفعه إلى النار .. وأن يدخل فى قلبه الشك فى الإيمان .. ويزين له عبادة المال والدنيا .. فإذا جاء يوم القيامة تبرأ القرين .. وقال ياربى ما أطغيته ولكن قلبه كان فاسدا .

وبعض الناس يستمعون إلى هذا القرين فيقودهم إلى النار .. وبعض الناس يعصمهم إيمانهم من ذلك فيفوزون بالجنة .. ولذلك فان قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا من الجنِّ والإنْسِ ﴾

(من الآية ٢٩ من سورة فصلت)

معناه أن هؤلاء الكفار يريدون أن يروا رؤية العين والمشاهدة .. القرناء الذين زينوا لهم السوء .

وحيث إننا لا نرى فى الدنيا شياطين الجن لأنهم محجوبون عنا .. فكأن كل كافر يريد أن يرى شيطان الجن الذى وسوس له بالسوء ، وقاده إلى الكفر .. ليضعه تحت قدميه فى النار حتى يذوقا العذاب معا .. وهى شهوة انتقام ودليل على الندم .

فالإنسان فى الآخرة ، وفى هذا الموقف العصيب ، يريد أن يفتك بكل قوته بكل من قاده إلى العذاب .. سواء كان جنيا أو إنسيا .. وهذه العداوة الرهيبة تظهر فى الآخرة

فى أكثر من مشهد من مشاهد يوم القيامة .. أشدها عنفا وقوة .. هو مشهد اللقاء مع القرين .. لأن هذا القرين هو الذى زين له المال الحرام .. وأغراه بالدنيا حتى استجاب له .

وألوان العذاب كثيرة فى الآخرة .. فجهنم فيها منازل كثيرة . والله سبحانه وتعالى قد صور لنا الهول الأكبر فى مشاهد يوم القيامة .. ليس فقط فى الحوار الذى سيجرى وهو كثير .. ولكن أيضا فيما سيحدث للكافرين .. ولكى نستكمل صورة الحوار قبل أن ندخل فى المشاهد الأخرى .. نأتى إلى قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ يَتَسَاءَلُون . قَالُوا : إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عن اليَمِينِ . قَالُوا بَلْ لم تَكُونُوا مُؤْمنين ﴾

(الآيات ٢٧، ٢٨، ٢٩ من سورة الصافات)

وبعض الناس قد يتساءل .. فاليمين عند الناس هو الصراط المستقيم .. والله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ فمن أُوتِىَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴾

(الآية ٧١ من سورة الإسراء)

فكيف يأتونهم عن اليمين ثم يقودونهم إلى النار ؟ .. نقول لهم : إن اليمين هى جهة الابتداء إلى الأعمال ..

فالإنسان يأكل بيمينه .. ويفعل معظم شئون حياته بيمينه .. فهو يبدأ كل شيء باليمين لأنها مركز القوة .. فإذا احتاج إلى جهد أكبر استعان بشماله .

ونحن هنا نتحدث عن الإنسان العادى .. ولا نتحدث عن الإنسان الأشول الذى تكون قوته فى ذراعه اليسرى ، فتلك حالات قليلة .. إذن فاليمين هى بداية الخير للإنسان فى كل شيء .. وهى التى تعينه فى حياته فى كل أموره .

فإذا قالوا :

﴿ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴾

(من الآية ٢٨ من سورة الصافات)

فمعنى ذلك أنكم كنتم تزينون لنا الباطل على أنه حق .. تقولون افعل كذا وكذا .. فإذا قلنا لكم مثلا إن هذا حرام .. حاولتم تزيين ذلك لنا .. تماما كالذى يغريك بكأس من الخمر .. فإذا قلت له إن الخمر حرام .. قال لك إننا سنتناول الخمر فى الجنة .. ونسى أن هذا قانون ، وهذا قانون .. وأن ما سنتناوله فى الجنة ليس كمثله شيء فى هذه الدنيا .. لأنه صنعة الله خالصة للمؤمنين .

■ ■ ■

خمر الدنيا .. والآخرة

وبعض الناس يجادل فى هذه النقطة جدالا كبيرا .. ونحن لن ندخل فى جدل فى أن الخمر فى الدنيا ليست لذة للشاربين .. وطعمها مر حتى إن الإنسان يتجرعها بسرعة حتى لا يتذوق طعمها .. ولكنها فى الآخرة :

﴿ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ ﴾

(من الآية ٤٦ من سورة الصافات)

كما قال الله سبحانه وتعالى .

ومن هنا فانها تختلف اختلافا مبينا .

ولكننا نقول لهؤلاء جميعا : انكم لم تفهموا معنى العبودية لله ومعنى الإيمان .. معنى العبودية هو أن أطيع الله فيما قال .. فإذا قال افعل فعلت .. وإذا قال لا تفعل امتنعت .. ومن هنا فاننا نتجه إلى القبلة وهى الكعبة فى صلاتنا . لأن الله سبحانه وتعالى أمرنا أن نتجه إليها .. ولو قال الله سبحانه وتعالى اتجهوا إلى مكان آخر لاتجهنا إليه دون مناقشة .. لأن الله المعبود هو الذى يختار وليس المخلوق العابد .. ومن هنا فان منهج السماء قد نزل إلينا باختيار الله .. وأطعناه طاعة عبودية لله .. ونحن نقبل الحجر الأسود فى الحج .. ونرجم الأحجار التى تمثل إبليس .. وهذا حجر وهذا حجر .. ولكن الذى يفرق بينهما فى التقبيل أو الرجم .. هو أمر الله لنا بأن نفعل هذا .

ولعل تغيير القبلة فى ليلة النصف من شعبان كان اختبارا إيمانيا للمسلمين .. والله سبحانه وتعالى موجود فى كل مكان .. وله المشرق والمغرب .. ولكن حين نزل الوحى بتغيير القبلة ، وأن يتجه المسلمون إلى البيت الحرام ، بدلا من اتجاههم إلى بيت المقدس .. لم يكن هذا إضافة للتكليف الإيمانى .. ذلك أن اتجاهى إلى الكعبة المشرفة ، أو اتجاهى إلى المسجد الأقصى .. كلاهما يأخذ منى نفس الجهد .. ولذلك لم تكن هناك إضافة لجهد إيمانى جديد بحيث يقال : أن زيادة فى التكليف قد حدثت .

ولكن الله سبحانه وتعالى حين أمر بتغيير القبلة .. كان له فى ذلك حكمة .. هى الاختبار الإيمانى للناس .. ولقد كان الله قادرا أن يجعل المسلمين يتجهون إلى الكعبة المشرفة من أول صلاة .. ولكنه سبحانه وتعالى أرادنا أن نفهم أن لا شىء فى هذا الكون مقدس لذاته أو له منزلة أعلى من خصائصه الذاتية .. ولكن التقديس يأتى من اختيار الله لهذا الشىء .. فإذا اختار الله مكانا لقبلة الصلاة اتجهنا إليه .. فإذا أمرنا أن نتجه إلى مكان آخر اتجهنا إليه دون نقاش .. لماذا ؟ .. لأنه لا المكان الأول ولا المكان الثانى لهما قدسية فى ذاتهما بعيدة عن الله .. بل إن القدسية تأتى من اختيار الله لهما .. فإذا اختار الله مكانا فلابد أن نخضع لهذا الاختيار .. فإذا أمرنا بأن ننصرف عنه إلى مكان آخر .. فإننا نطيع الأمر ، لأننا لا نخضع للمكان نفسه .. ولكننا نخضع لاختيار الله له ..

ولذلك كان تغيير القبلة امتحانا إيمانيا للمسلمين .. وقال الله سبحانه وتعالى :

﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ من النَّاسِ ماوَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ التى كَانُوا عَلَيْهَا ﴾

(من الآية ١٤٢ من سورة البقرة)

لماذا وصف الله سبحانه وتعالى هؤلاء الناس بالسفهاء ؟ .. لأنهم لم يفطنوا إلى المنطق الإيمانى فى عبادة الله .. ذلك المنطق الذى يجعل اختيار الله هو المفضل والمميز لمكان عن آخر .. وليس المكان نفسه .

تأتوننا عن اليمين

ولذلك فإن الجدل فى الآخرة حول قولهم :

﴿ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عن اليَمِين ﴾

(من الآية ٢٨ من سورة الصافات)

أى تلبسون المعصية ثوب الحلال زيفا .. فيرد عليهم أولئك الذين أضلوهم :

﴿ بَلْ لم تَكُونُوا مُؤْمِنين ﴾

(من الآية ٢٩ من سورة الصافات)

أى أنه لو كان الإيمان فى قلوبكم لاتبعتم منطق الإيمان ، وما استمعتم إلينا .. وكنتم تأخذون علة تنفيذ الأمر أو سبب تنفيذ الأمر أنه صادر من الله .. دون أن

تبحثوا عن أسباب أخرى .. فيكفى أن الله سبحانه وتعالى قال لنطيع ولا نفعل .. والذين مثلا يحاولون الآن أن يبرروا تحريم لحم الخنزير بأنه يأتى بالدودة الشريطية .. وبأنه يسبب السرطان وغيره .. نقول لهم لو أخذنا هذا المنطق ما كنا مؤمنين .. ولكننا لا نأكل لحم الخنزير لأن الله قد حرمه .. ولو كان لحم الخنزير يشفى كل أمراض الدنيا ما أكلناه .. لأنه مادام الله قد حرمه فنحن نطيع أمر الله ، ولا ننتظر حتى نعرف الحكمة من التحريم لكى نمتنع .

فالمسلمون الأوائل لم يكونوا يعرفون تلك الأمراض القاتلة التى يسببها لحم الخنزير .. ولكنهم امتنعوا عنه لأن الله حرمه .. وكان كافيا جدا فى منطق الإيمان أن يكون الامتناع بتحريم الله له .. دون أن نجهد أنفسنا فى معرفة العلة من التحريم .

ولو أخذنا كل شىء بمنطق أننا لابد أن نعرف العلة أو السبب لكان هذا منطقا دنيويا ، وليس عبادة لله ولا يدخل فى منطق الإيمان .. والله سبحانه وتعالى يريدنا مؤمنين به إلها .. ويكفينا أن يقول افعل لكى نفعل .

إذن فهؤلاء الذين يطيعون منطق الإيمان المعكوس من بعض الناس .. ليحلوا ما حرم الله تحت أى ادعاء من الادعاءات .. نقول لهم : إن هذا المنطق هو الذى يتخذه بعض مدعى النبوة وبعض المذاهب الخارجة عن الدين .. فهم يحلون ما حرمه الله تحت ادعاءات مختلفة .. ومن

الذين يتبعهم .. هم أولئك الذين فى داخل نفوسهم ميل للمعصية .. وحب لاتباع الشهوة .. لذلك لا تجد مذهبا من هذه المذاهب المنحرفة .. إلا وهو قائم على تحليل ما حرمه الله .. وبمنطق الإيمان المزيف .

فتجد مثلا البهائية والقاديانية وغيرهما من المذاهب التى تريد إباحة الزنا أو زواج المتعة .. أو تريد أن تحرم ما أحله الله من تعدد الزوجات .. تقوم بذلك بادعاءات زائفة ، وتفسيرات منحرفة ، بالنسبة لآيات القرآن الكريم .. ولذلك فهى تحاول أن توهم الناس بأنها أكثر فهما للقرآن من رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى نزل عليه هذا القرآن .. أو من المسلمين الأوائل .. ولا تجد مذهبا من هذه المذاهب يجاهر بالكفر ، أو يعلن أنه ابتعد عن الإيمان .. بل كلها تدعى زيفا أن خطها هو الإيمان الصحيح .. وهذا قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عن اليَمِينِ ﴾

أى كنتم تدخلون إلينا بمنطق الإيمان والنبوة الكاذبة .. ويفضح الله سبحانه وتعالى أتباع هؤلاء فى قوله :

﴿ بَلْ كُنْتُمْ قَوْماً طَاغِين ﴾

(الآية ٣٠ من سورة الصافات)

* * *

أى أن الميل للمعصية والكفر كان فى قلوبكم .. فلما قلنا ما قلناه لم تتبعونا بمنطق الإيمان ، بل اتبعتمونا لأن كلامنا صادف هوى فى نفوسكم .. ولولا أنكم طاغون منذ البداية ما كنا استطعنا أن نستميلكم بأى شكل من الأشكال .

إلى هنا وناتى إلى مشهد آخر من مشاهد القيامة .. وذلك عندما ينتهى الحساب ويبدأ المرور على الصراط .

■ ■ ■

■ الفصل السادس ■

أهـل الأعـراف

الحساب أشكاله متعددة ومشاهده كثيرة .. ولكن حساب المؤمن ستر .. أى يكون مستورا بينه وبين ربه .. وحساب الكافر فضيحة .. أى يكون على رؤوس الأشهاد جميعا .. ويرى الناس كل الناس الهوان والذل الذى يصيب الكفار .. وكيف ينزعون من أماكنهم .. وكيف يهانون ، ويجرون على وجوههم ..

بعض الناس يتساءل بأى لغة سيكون الحساب .. مع أن لغات الناس مختلفة فى العصر الواحد فكيف بها من عهد آدم حتى يوم القيامة .. نقول إن الله سبحانه وتعالى سيخاطبنا بلغة نحن جميعا من عهد آدم الى يوم القيامة نفهمها .. والله قادر على ذلك كما هو قادر على أن يجعلنا نفهم لغة أيدينا ولغة الجماد ولغة الملائكة .. كل خلق الله فى ذلك اليوم سيتحدثون لغة واحدة .. فالله سبحانه وتعالى هو الذى علم الانسان اللغة فقال تعالى :

﴿ وعلّم آدمَ الأسماءَ كلَها ﴾

(من الآية ٣١ من سورة البقرة) ..

ومن العجيب أنه لا يمكن لأى إنسان أن يتعلم إلا إذا بدأ تعليمه بالأسماء .. ولذلك فى كل أنحاء العالم عندما يبدأون تعليم الطفل الصغير يعلمونه الأسماء .. فيقولون هذا كوب وهذا بحر ، وهذا جبل ، وهذه مائدةالى آخر ذلك .. وبدون هذا التعليم الذى أعطاه الله لآدم لا يمكن أن يتعلم طفل شيئا .. وأول لغة فى العالم هى من الله لآدم .. لأن اللغة تسمع ولا تورث .. ولذلك إذا أتيت بطفل انجليزى وربيته فى بيئة عربية فإنه يتكلم العربية .. وإذا أخذت طفلا عربيا ووضعته فى بيئة انجليزية فهو يتكلم الانجليزية ..

إذن فلا بد أن آدم سمع من الله قبل أن يتكلم .. أى أن الله سبحانه وتعالى أعطاه القدرة على التعبير .. ولذلك فانه فى يوم القيامة تختفى اللغات كلها ، ولا تبقى إلا لغة واحدة يعلمها الله لعباده فيتحدثون جميعا بها .. ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم :

﴿ ليلقين الله أحدكم يوم القيامة ، وليس بينه وبينه ترجمان يترجم له ﴾

.. أى أن الله يعطى لعباده قدرة الفهم .

ويتم رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول :

(فليقولن الله له ألم أبعث اليك رسولا فيبلغك ؟

فيقول : بلى . فيقول الله : ألم أعطك مالا وولدا وفضلا ؟ فيقول : بلى . فيقول : ألم أكرمك وأسيدك وأزوجك وأسخر لك الخيل والابل ؟ فيقول : بلى . فيقول الله : أفظننت أنك ملاقىّ ؟ فيقول : لا . فينظر عن يمينه فلا يرى إلا جهنم ، وينظر عن يساره فلا يرى إلا جهنم . فيستغيث بربه ، فيقول له الله : اليوم أنساك كما نسيتنى .

ثم يقال للكافر الآن نبعث شاهدا عليك ، فينظر يمينا فلا يرى أحدا ، ويسارا فلا يرى أحدا . فيتفكر فى نفسه من ذا الذى سيشهد عليه فيختم على فمه ، ويقال ليديه ورجليه ولحمه وعظمه انطقى فتنطق بعمله) . على أننا قبل أن نتحدث عن الصراط الذى يضرب على جهنم ليمر عليه كل الخلق قبل أن يدخلوا الجنة أو يلقوا فى النار .. لا بد أن نتناول بعض المشاهد التى يقف عندها الناس .. فرسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

﴿ عجبت لأناس يقادون الى الجنة بالسلاسل ﴾ .

فكيف يقاد الانسان الى الجنة رغما عنه ؟

.. نقول إن هذا الحديث يشمل عدة طوائف قيدت الى طريق الايمان وهى كارهة . ثم بعد ذلك ذاقت حلاوة الايمان ، فانطلقت فى الطريق الى آخره .. وأول من ينطلق عليه هذا هم أسرى الحرب من الكفار أو من غير المسلمين تم أسرهم أثناء القتال فاقتيدوا بالسلاسل الى معسكرات

الأسرى .. اقتيدوا وهم كارهون .. وفى خلال اقامتهم بهذه المعسكرات كان لهم الفرصة ليتأملوا فى قضية الايمان بعيدا عن أى تأثير آخر .. فجلسوا يفكرون ويناقشون ويستمعون ، فاقتنعوا بهذا الدين وآمنوا .. وجذبهم الايمان فدرسوا الدين فازدادوا ايمانا وصلح عملهم ، فأصبحوا من أهل الجنة .

أولئك كانت بداية اتجاههم الى الايمان وبداية طريقهم الى الجنة أنهم اقتيدوا بالسلاسل .. فكأنهم لولا هذه السلاسل التى وضعت فى أيديهم وأرجلهم ما كانوا قد اتجهوا الى الايمان ولا دخلوا الجنة ..

وهناك فئة ثانية ينطبق عليها هذا الحديث الشريف هو كل من يذهب مضطرا الى مجالس العلم ومجالس الذكر .. فلنفرض أن هناك رجلا أعمى وله ابن ، الرجل يريد أن يذهب الى المسجد ، وأن يصلى ، وأن يستمع الى الأحاديث الدينية الى آخر ذلك ..

ولذلك فإنه يأخذ ابنه معه ليدله على الطريق ذهابا وإيابا .. ويضطر الابن الى أن يذهب مع أبيه وهو غير راغب .. فكأنه يقاد رغما عنه .. ثم تمضى فترة فاذا بهذه المجالس الدينية تجذب الابن تجاه الدين .. ويحس أنه يريد أن يعرف أكثر فيقرأ ويتبع المنهج ويزداد ايمانا ..

إذن هو فى البداية اقتيد الى الجنة رغما عنه وكأنه يقاد بالسلاسل .. ثم بعد ذلك مضى فى الطريق وأحب الطاعة وأخلص لله ..

وعلى أية حال فان أى انسان بدأ الطريق الى الله ، وهو غير راغب انما مضطر .. ثم هدى الله قلبه الى الايمان فانه يكون من الذين اقتيدوا الى الجنة بالسلاسل ..

فاذا أضفنا الى هؤلاء أولئك الذين لا ييسر الله لهم معصية أبدا .. نكون قد فهمنا معنى الحديث الشريف .

على أننا نتساءل : هل يدخل الى الجنة من لا عمل له ؟ .. نقول نعم .. هناك من سيدخل الجنة ولا عمل له .. فلنفرض أن رجلا أمن وشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله .. شهادة خالصة مخلصة ليس فيها رياء ولا نفاق ولكن فيها صدق الايمان .. وبعد أن شهد الرجل بهذه الشهادة انتهى أجله .. مات أو صدمته سيارة ، أو نزل فوق رأسه حجر ، فانه يدخل الجنة .. لأن شهادة أن لا اله إلا الله تجب ما قبلها ..

ولقد كان بخيرق أحد أحبار اليهود ، وهداه الله ، فنطق بالشهادة ، وأعلن ايمانه . وقبل أن يدخل المعركة قال : مالى أعطوه لمحمد .. ثم دخل المعركة فاستشهد .. لم يصل لله ركعة واحدة .. ولكنه قبل أن يموت أمن ونطق بالشهادتين .. وعندما بلغ أمره لرسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

﴿ بخيرق نعم يهود ﴾ . .

ذلك رغم أنه لم يصل ركعة واحدة ، فقد دخل بإيمانه الجنة .

على أن أهل الجنة بالنسبة لأهل النار سيكونون بنسبة واحد الى ألف .. فقد جاء فى الحديث القدسى : يقول الله عز وجل يوم القيامة : « يا آدم . فيقول لبيك ربنا وسعديك . فينادى صوت : إن الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثا الى النار . فيقول آدم : وما بعث النار ؟ فيقال : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين . وحين يسمع من فى الحشر هذا الكلام تضع الحامل حملها ، ويشيب الوليد ، وترى الناس سكارى وماهم بسكارى ، ولكن عذاب الله أليم ..»

ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : (أهل الجنة بالنسبة لأهل النار كالشعرة البيضاء فى جسد ثور أسود ، أو شعرة سوداء فى جسد ثور أبيض) .

أما الباقى فهم يدخلون الجنة .. وهم الذين يقول عنهم الله سبحانه وتعالى :

﴿ إن الذَّين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تُفتح لهم أبوابُ السماء ، ولا يدخلون الجنةَ حتى يلجَ الجملُ فى سم الخياطِ ﴾

(من الآية ٤٠ من سورة الأعراف)

الله سبحانه وتعالى قال « كذبوا بآياتنا » .. أى لم يصدقوا بها ولم يؤمنوا بها .. فلماذا قال الله واستكبروا عنها ..

نقول ان الله سبحانه وتعالى يريد أن يعطينا حكما جديدا .. فهؤلاء الناس لم يكذبوا فقط .. ولم يكذبوا لأن آيات الله فى كونه غير واضحة .. أو لم تصل الى عقولهم .. وذلك لأن آيات الله فى الكون واضحة لكل ذى عقل .. فالشمس والقمر والجبال والأنهار والزرع والماء .. كل هذا ظاهر للناس جميعا لا يحتاج الى فكر عميق ، ولا الى من يبينه ، بل هى آيات تنطق بالاعجاز لله .. ولكن هؤلاء المكذبين كذبوا استكبارا .. ذلك أن الكبر ملأ نفوسهم .. فرفضوا مثلا الايمان برسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأنه ليس من صناديد مكة ..

﴿ وقالوا لولا نُزل هذا القرآن على رجلٍ من القريتين عظيمٍ ﴾

(الآية ٣١ من سورة الزخرف)

أى أن القرآن وحده يحمل الحجة البالغة والبيان الكامل .. ولكن الكبر الذى ملأ نفوسهم لأن الله أعطاهم من نعمه فى الدنيا .. فأصبحوا يستنكفون أن يخضعوا الا لرجل ذى جاه وسلطان .. فهم لا ينكرون القرآن ولكنهم لايريدون أن يخضعوا للحق وللمساواة التى جاء بها هذا الدين .. ولذلك فهم يظنون أنه لو نزل هذا القرآن على رجل

ذى سلطان ونفوذ .. فإنه سيكون منهم ويبقى لهم ميزاتهم وسيادتهم وعبودية الآخرين لهم .. ولم لا وهو منهم ويهمه أن يزدادوا هم سيادة ويزداد الآخرون عبودية .. نقول لهؤلاء أن الله سبحانه وتعالى لا يفرق بين عباده بجاه الدنيا .. وأن الله يعلم أين يضع رسالته .. وهو يضعها فى المكان الصحيح السليم .. ويعطيها لصاحب الخلق العظيم الذى سيحمل المنهج بأمانة ويعلمه للناس بأمانة .. ويكون واحدا من قومه فلا يتعالى عليهم .. يقول الله سبحانه وتعالى ان هؤلاء المكذبين لا تفتح لهم أبواب السماء لأن هناك للسماء أبوابا وكأنها تفتح وتغلق .. نقول نعم ان للسماء أبوابا وعليها ملائكة وان هذه الأبواب تفتح لدعاء الصالحين فيصعد الى السماء السابعة .. وتفتح لدعاء المظلومين فيصعد دعاؤهم الى أعلى عليين .. وأبواب السماء تفتح عند الموت لأرواح الصالحين لتصعد الى الملأ الأعلى وتكون رائحتها طيبة كرائحة المسك .. أما المكذبون فلا تفتح لهم أبواب السماء بل تخسف بأرواحهم الأرض .. فالعمل الصالح فقط هو الذى يرفع صاحبه .. وقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ ولا يدخلون الجنةَ حتى يلجَ الجملُ فى سَم الخياطِ ﴾

(الآية : ٤٠ من سورة الأعراف)

يريد الله سبحانه وتعالى أن ينبهنا الى استحالة

دخولهم الجنة .. لأنه لو قال لا يدخلون الجنة فقط ، ربما كان هناك أمل فى رحمة من الله تصيبهم فيدخلهم الجنة ..

ولكن الحق يريدنا أن نعرف أن هناك استحالة فى أن يدخلوا الجنة كما أن هناك استحالة فى أن نأتى بالجمل وندخله فى ثقب المخيط ، أو ثقب الابرة .. ونحن نعرف أن الخيط الرفيع لا يدخل من ثقب الابرة الا بصعوبة .. ونحن نبلله بريقنا لنعطيه شيئا من الصلابة حتى يمكن أن يدخل من ثقب الابرة ..

إذن فالخيط لابد أن نحتال حتى يدخل من هذاالثقب الضيق .. فما بالك إذا جئنا بالجمل سواء كان الجمل الحقيقى أو الحبل الغليظ لأنه من معانى الجمل فى اللغة أيكون ذلك ممكنا أن يدخل الجمل فى ثقب الابرة .. أو يكون ذلك كناية من الله سبحانه وتعالى من أن عددا قليلا من البشر هو الذى سيدخل الجنة .. وأن عددهم لايزيد عما يسمح به ثقب الابرة بالمرور .. أما باقى الناس وهم فى حجم الجمل من كثرة عددهم فانهم لا يدخلون .

وهكذا سلب الله سبحانه وتعالى من المكذبين والمستكبرين نعيما دائما وهو الخلود فى الجنة .. ولكن هل سلب هذا النعيم منهم عقوبة كافية عن تكذيبهم واستكبارهم ؟ نقول : لا .. انهم حرموا النعيم فى الجنة ، ولكنهم سيعذبون فى النار .. ولذلك فقد حرموا النعيم بحرمانهم من الجنة .. ثم بعد ذلك يأتيهم جزاء آخر فى قوله تعالى :

﴿ لهمْ من جهنَّمَ مهادٌ ومن فوقهم غواشٍ ، وكذلك نجزى الظالمين ﴾

(الآية ٤١ من سورة الأعراف)

ويتم الحساب وسط مشاهد عديدة ترى أصحاب النار فيها ، وقد اسودت وجوههم .. وليس معنى سواد الوجه هو اللون بقدر ما هى الحالة التى يكون عليها الانسان .. فالانسان حين يكون فى كرب عظيم نقول عنه : ان وجهه أسود .. أى مكفهر من هم عظيم .. كذلك الذين عرفوا أن مصيرهم النار .. يود الواحد منهم أن يتحول الى حفنة تراب ، ولا يدخل الى النار .. فأقل العذاب فى النار هو أن يرتدى الانسان نعلين من جهنم فيغلى رأسه .. فيقال له : هل تفتدى نفسك بكل مافى الدنيا وبأهلك وولدك وكل ما تملك وكل ما يمكن أن تملك لتنجو من العذاب .. فيقول بسرعة : نعم .. فيقال له : لن يقبل منك .

أولئك الذين اسودت وجوههم هم أصحاب النار الذين قال الله عنهم :

﴿ ولا يكلمهُم الله يومَ القيامةِ ولا يزكّيهم ﴾

(من الآية ١٧٤ من سورة البقرة)

قد يقول بعض الناس أن هناك حديثا بين الله وبين أهل النار .. سواء كان ذلك قبل أن يدخلوا النار أو وهم فيها .. فالله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ قالوا ربَّنا غلبتْ علينا شقوتُنا ، وكنا قوماً ضالين . ربَّنا أخرجنا منها فإن عُدنا فإنا ظالمون قال اخسئُوا فيها ولا تكلمونِ ﴾

(الآيات من ١٠٦، ١٠٨ من سورة المؤمنون)

هذا حوار بعد دخولهم النار .. وهناك حوار آخر فى يوم المشهد العظيم ذكرناه منه قوله تعالى :

﴿ أين ما كنتمْ تدعونَ من دونِ الله ؟ قالوا ضلّوا عنا ، وشهدوا على أنفسهمْ أنهم كانوا كافرينَ ﴾

(الآية ٣٧ من سورة الأعراف)

نقول إن المقصود بكلام الله سبحانه وتعالى هو الأنس بالله .. فالله سبحانه وتعالى حين يخاطب المؤمنين يأنسون بخطابه ، وينعمون بكلامه ، وتكون هذه نعمتهم الكبرى التى يدخلهم الله سبحانه وتعالى فيها فى رحمته .

ذلك أن هناك نوعين من التنعيم .. أولئك الذين يدخلون الجنة .. وهؤلاء ينعمون فيها .. ولكن الجنة مخلوق من خلق الله .. ولذلك فهى باقية ما شاء لها الله فى البقاء .. ولكن الذين يدخلهم الله فى رحمته .. فالرحمة هى صفة من صفات الله .. فكأنهم باقون فيها لا يخرجون منها أبدا .

ومعنى : لا يكلمهم الله .. أى الكلام الذى يؤنسهم

وينعمهم .. ولكن يكلمهم الكلام الذى يؤلمهم ويزيدهم عذابا .. وقوله تعالى :

﴿ ولا يزكيهم .. ﴾

أى لا يطهرهم .. فتبقى ذنوبهم ، والعياذ بالله غير مغفورة ، ويظلون فى النار .. وحتى حين يحاولون أن يلتمسوا إذا كانوا سيبقون فى النار إلى الأبد أم سيخرجون منها .. يلجأون إلى الله سبحانه وتعالى ، ولكنه لا يجيبهم ، ولا ينظر إليهم .. وهم فى ظلمات ذنوبهم لا يرون الله ، مصداقا لقوله تعالى :

﴿ إنَّهم عن ربِّهم يومئذ لمحجوبونَ ﴾

(الآية ١٥ من سورة المطففين)

فيتجهون إلى كبير ملائكة النار ويطلبون منه أن يجعل الله سبحانه وتعالى يقضى عليهم .. أى يميتهم ويريحهم من العذاب وحكمه .. فيقول لهم ملك النار : لقد صدر الحكم وأنتم لا تدرون .. إنكم خالدون فى العذاب .. ويعطينا الحق سبحانه وتعالى هذه الصورة فى القرآن الكريم فيقول :

﴿ ونادَوا : يامالكُ ليقضِ علينا ربُّك ،
قال : إنَّكم ماكثون ﴾

(الآية ٧٧ من سورة الزخرف)

أى أنهم من شدة العذاب يريدون أن يعرفوا حكم الله ..

عله قد خفف عنهم العذاب يوما أو أياما .. فيقول لهم ملك النار لم يخفف العذاب وستبقون فى النار .

عندما ينتهى الحساب يضرب الصراط على جهنم .. والصراط هو الطريق .. ونحن ندعو الله سبحانه وتعالى ونحن فى دنيا الاختيار والتكليف أن يهدينا الصراط المستقيم .. أى أن الطريق المستقيم الذى هو أقرب الطرق وأسلمها إلى الغاية التى نقصدها .. ولكى نعرف ميزة الصراط المستقيم لا يكون ذلك إلا فى الآخرة .. فيضرب الصراط فوق جهنم .. وذلك مصداقا لقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وإنْ منكم إلا واردُها ، كان على ربِّك حتما مقضيًّا ﴾

(الآية ٧١ من سورة مريم)

عندما نزلت هذه الآية بكى الصحابة بكاء شديدا .. فنزل قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ ثم نُنجى الذين اتقوا ، ونَـذرُ الظالمين فيها جِثيا ﴾

(الآية ٧٢ من سورة مريم)

ولكى نفهم هذه الآيات ونعرف معنى الصراط نقول : إن هناك ثلاث مراحل بالنسبة للعذاب لابد أن نتنبه لها .

الله سبحانه وتعالى أخبرنا أن هناك الجنة والنار فى الآخرة .. هذا علم أبلغه الله لنا .. ولكن لأن هذا العلم أتى

من الله سبحانه وتعالى فهو علم يقين .. لأنه إخبار من الله . والله يقين وكل ما يخبرنا به يقين .. وكفى حيثية لتصديق الخبر أنه يأتينا من الله سبحانه وتعالى .. ولذلك لابد أن نلتفت إلى قول الله لرسوله الكريم :

﴿ ألمْ تر كيفَ فعل ربُّك بأصحابِ الفيلِ ﴾

(الآية الأولى - سورة الفيل)

ورسول الله صلى الله عليه وسلم لم ير لانه ولد فى عام الفيل .. ولكن الله سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا بهذه الآية إلى أن أخبار الله لنا هو فى يقين الرؤية .. فلأن الله قال فكأنما رأينا .. يصبح الأمر يقينا فى نفوسنا كأننا رأيناه تماما .. ولذلك قال الله لرسوله الكريم : ﴿ ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ﴾ .. ولم يقل أن تعلم .. لان الإخبال جاء من الله فلابد أن نستقبله بيقين إيمانى .. ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ كلاَّ سوف تعلمونَ . ثم كلا سوفَ تعلمونَ ، كلاَّ لو تعلمون علمَ اليقين ، لترونَّ الجحيمَ ، ثم لترونها عينَ اليقينِ ﴾

(الآيات من ٤ - ٧ من سورة التكاثر)

* * *

نلاحظ هنا أن الحق سبحانه وتعالى قد استخدم :

﴿ علم اليقين ﴾ .. و : ﴿ عين اليقين ﴾

بالنسبة لجهنم .. علم اليقين مفروض أنه بالنسبة للمؤمن فى الحياة الدنيا .. فما دام الله قد أعلمنا فعلمه علم يقين ، أى لابد أن يقع بالنسبة لنا .. نأتى بعد ذلك إلى عين اليقين .. وهذا هو الذى سيحدث عندما يضرب الصراط فوق جهنم .. سنمر جميعا من فوق الصراط ونرى جهنم رؤية عين اليقين .. أى سنشاهدها بأعيننا وهى تستعر ونحن نمر من فوقها .. هذا هو عين اليقين .

وهناك آيات أخرى يقول فيها الحق سبحانه وتعالى :

﴿ فنُزُلٌ من حميم .. وتصليةُ جحيمٍ ،
ان هذا لهو حقُّ اليقين ﴾

(الآيات ٩٣،٩٤،٩٥ من سورة الواقعة)

متى تصبح جهنم حق اليقين ؟ .. للذين سيدخلونها والعياذ بالله تصبح حقيقة واقعة يحسون بها ويعرفون انها حق .

نأتى بعد ذلك إلى قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وإن منكم إلا واردها ﴾

(من الآية الكريمة)

ورد أى وصل إلى المكان ، وليس معنى ذلك أنه يذوق مافيه .. فيقال ورد الماء أى وصل إلى مكان الماء ، ولا يعنى ذلك أنه شرب منه أو خاض فيه .. وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى عن موسى عليه السلام :

﴿ فلما وردَ ماءَ مدينَ ﴾

(الآية ٢٣ من سورة القصص)

أى وصل إلى مكان الماء .. كذلك قول الله سبحانه وتعالى عن جهنم : ﴿ وإن منكم إلا واردها ﴾ .. أى أنتم جميعا ستصلون إليها ، ولكن لن تعذبوا جميعا فيها .. بل سينجى الله المؤمنين ويعذب العصاة والكافرين .. وهذا سيتم على الصراط الذى يضرب فوق جهنم .. هذا الصراط يمر عليه كل الخلق ليروا جهنم رؤية اليقين .. فكل منا سيمر عليها .. لماذا ؟ .

ليعرف الطائع نعمة الله فى أنه نجاه من العذاب .. فالنجاة من عذاب جهنم نعمة كبرى .. وليرى الكافر والعاصى ما ينتظرهما من عذاب .

يبدأ مرور كل خلق الله على الصراط ، وقد انتهت أرض الحشر ، واختفت شمس الحشر .. وأصبحت الدنيا ظلاما .. كل يرى على قدر النور الذى أعطاه الله له .. فبعضنا أعطاه الله نورا قويا فهو يرى .. وبعضنا أعطاه الله نورا بسيطا فهو يرى على قدر خطوة قدميه .. وبعضنا أعطاه الله نورا على قدر اصبعه فهو يزحف ببطء شديد ، ويرى أهوالا ، ويظن فى كل مرة أنه سيسقط فى

النار .. فإذا مر بالصراط ونجا حمد الله كثيرا على النعمة الكبرى .. أما الكافرون والعياذ بالله فهم فى ظلام دامس يتخبطون حتى تخطفهم كلاليب من حديد فتهوى بهم إلى جهنم .

الله سبحانه وتعالى يعطينا الصورة فى القرآن الكريم .. أولا صورة أصحاب الجنة وهم يمرون بالصراط فى قوله تعالى :

﴿ يومَ تَرى المؤمنين والمؤمنات يسعَى نورُهم بين أيديهم وبأيمانهم بُشراكم اليوم جناتٍ تجرى من تحتها الأنهارُ ﴾

(الآية ١٢ من سورة الحديد)

ثم يعطينا القرآن بعد ذلك صورة المؤمنين بهذا النور فى قوله تعالى :

﴿ يومَ لا يُخزى الله النبىَّ والذين آمنوا معه نورُهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربنَّا أتممْ لنا نورنا واغفرْ لنا إنك على كل شىء قديرٌ ﴾

(الآية ٨ من سورة التحريم)

وهكذا دعاء المؤمنين بأن يتم الله لهم نوره .. وعلى قدر نور كل واحد منهم يكون مروره على الصراط .. فأتقاهم يمر كالبرق .. وكلما قل العمل الصالح كان المرور على

الصراط بطيئا مليئا بالأهوال .. حتى يحسب الذى يمر أنه سيسقط فى جهنم .. فالمرور بالصراط من أهوال القيامة خصوصا وأنت ترى جهنم مشتعلة وأنت تمر فوقها .. ومن هول ما ترى تدعو الله ألا يقضى عليك بثانية واحدة فيها .. فما بالك بمن سيمكث فيها ٤٠ خريفا وهذا أقل العذاب .

* * *

يعطينا الله صورة أخرى لما سيحدث عندما تصبح الدنيا ظلاما .. ويبدأ الناس فى عبور الصراط .. يجد المنافقون والمنافقات وهؤلاء هم الذين أظهروا الإيمان أو تظاهروا به ، بينما فى قلوبهم الكفر .. وهؤلاء هم الذين عاشوا مع المؤمنين على أنهم منهم ولكنهم ليسوا منهم .. ولم يكن المؤمنون فى الدنيا يعرفون بنفاقهم .. ولذلك كانوا يعيشون معا وبينهم صلات ، ذلك فى الحياة الدنيا .. فإذا جاءت الآخرة أصبح هؤلاء فى جانب وهؤلاء فى جانب آخر .. حين يبدأ عبور الصراط يسرع المنافقون والمنافقات ليعبروا على نور المؤمنين فيفصل الله بينهم بحاجز .. هو من ناحية المؤمنين يملؤه النور والرحمة .. ومن ناحية الكفار يملؤه الظلام والعذاب .. ويعطينا الله الصورة فى القرآن الكريم فى سورة الحديد فيقول :

﴿ يومَ يقولُ المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبسْ من نورِكم ، قيل ارجعوا وراءكم ، فالتمسوا نوراً ، فضُرب بينهم بسورٍ له بابٌ ، باطنهُ فيه الرحمةُ ، وظاهرهُ من قبله العذابُ ﴾

(الآية ١٣ من سورة الحديد)

وهكذا يحرم الله المنافقين والمنافقات من أن يسيروا على هدى نور المؤمنين والمؤمنات .. أو يتمتعوا برحمة الله وأمنه وهم يعبرون الصراط .. وحينئذ يتساءل المنافقون والمنافقات :

﴿ ألم نكن معكم ﴾

أى ألم نكن معا فى الحياة الدنيا حينما كان المنافقون يتظاهرون بالإيمان .. وكانوا يجلسون مع المؤمنين ويعايشونهم .. فيقال لهم ان هذا كان فى الدنيا حيث يمكن التظاهر بما لا يؤمن به الإنسان حقيقة ، وحيث كان يمكن أن يدعى أى إنسان الإيمان وهو لا يؤمن .. أما الآن فى الآخرة فلا يوجد هناك ظاهر أو باطن فذلك اليوم الذى قال عنه الحق سبحانه وتعالى :

﴿ يوم تُبلى السرائرُ ﴾

(الآية ٩ من سورة الطارق)

ويظهر الناس على حقيقتهم ولا يسيطر أحد على جسده أو أعضائه أو قلبه ويكشف الله كل شيء .. لذلك عندما يقول المنافقون :

﴿ ينادونَهم ألم نكن معكمْ ، قالوا : بلى ولكنَّكم فتنتم أنفسكم وتربصتُم وارتبتُم وغرتكم الأمانيُّ حتى جاء أمرُ الله وغرّكم بالله الغَرورُ ﴾

(الآية ١٤ من سورة الحديد)

وهكذا حسمت المسألة وفرق بين المؤمنين والمنافقين .

وهكذا نرى أن نعمة الإيمان هى التى تنجى المؤمنين من النار بعد أن رأوها عين اليقين .. فكل من سيرى النار سيعرف نعمة الله .. فإذا زحزح عن النار كان ذلك فضلا عظيما من الله .. فكأن هناك فضلين لله فى الآخرة .. الفضل الأول أن ينجيك من النار .. والفضل الثانى أن يدخلك الجنة .. ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ فمن زُحزح عن النار وأُدخل الجنةَ فقد فاز ﴾

(من الآية ١٨٥ من سورة آل عمران)

ولكن هناك من سيزحزحون عن النار ولا يدخلون الجنة إلا بعد فترة من الزمن .. هؤلاء هم أهل الأعراف .. الذين

قال الحق سبحانه وتعالى عنهم :

﴿ وبينهما حجابٌ وعلى الأعرافِ رجالٌ يعرفون كلاًّ بسيماهُم ﴾

(من الآية ٤١ من سورة الأعراف)

أى أن هناك فريقا ثالثا ليسوا من أهل الجنة ولا من أصحاب النار .. وهؤلاء موجودون على الأعراف .. فى مكان عال بين الجنة والنار .

والعرف مأخوذ من عرف الديك أى على أعلى شىء فيه .. وعرف الفرس أى أعلى مكان فيه .. هؤلاء هم أهل الأعراف .. هؤلاء الجالسون على الأعراف يعرفون أصحاب الجنة وأصحاب النار بأشكالهم .. وهناك علامات مميزة لأهل الجنة .. وعلامات مميزة لأهل النار .. ما هى هذه العلامات ؟

عندما يدخل الإنسان منهج الله يكون أهلا لاستقبال سمات الإيمان .. وهى الوجه السمح والنفس الرحيمة وحب الخير .. فإذا دخل الجنة امتلأ وجهه نورا وقلبه رضا .. وبمجرد أن تنظر إليه يسرك وجهه وتراه متلألئا .

أما أهل النار والعياذ بالله فلهم بشاعة الخلقة وسوء الخلق .. وهم من هول ما يعانون ترى على وجوههم تعبيرات الألم الشديد والضيق .. والله سبحانه وتعالى يعطى صفات الجلال والجمال لأهل الجنة .. ويعطى صفات القبح والبشاعة لأهل النار .

إذن فأهل الجنة لهم سمات أو علامات تميزهم .. وأهل النار لهم علامات تميزهم .. كيف يتم ذلك ؟ .. انه يتم بقدرة الله سبحانه وتعالى .. وإذا كنا نحن البشر وبصناعة البشر نستطيع أن نحول أجمل الوجوه بالألوان والاصباغ فتصبح أبشع الوجوه .. ونستطيع بنفس الطريقة أن نداوى عيوب الوجه القبيح ليصبح مقبولا .. وهذا ما يسمونه الماكياج .. ونحن نفعل ذلك بطريقة صناعية يمكن أن تزال بالماء أو بسوائل أخرى .

ولكن الحق سبحانه وتعالى سيتم هذه العملية خلقا منه بحيث لا يزيلها شيء .. فبمجرد أن تنظر إلى الإنسان تعرف إذا كان من أصحاب النار أو من أصحاب الجنة .. وذلك بمجرد النظر دون أن تحتاج أن ترى هذا ينعم وهذا يعذب .. بمجرد أن يرى أصحاب الأعراف أهل الجنة يقولون لهم سلام عليكم .. أى أن الأدنى يحيى الأعلى .. ولا يعتقد أحد أنه يوجد فى قلوب أهل الأعراف حقد على أصحاب الجنة أو عطف على أصحاب النار .. بل على العكس هم فرحون بأصحاب الجنة ويستعيذون من أصحاب النار .

ولكن من هم أصحاب الأعراف .. انهم الذين جاءوا إلى الآخرة وقد تساوت حسناتهم مع سيئاتهم .. تساوت كفتا الميزان والله سبحانه يقول :

﴿ فأمَّا من ثَقلت موازينُه فهو فى عيشةٍ راضيةٍ ، وأما من خفّت موازينه فأمُّه هاويةٌ ، وما أدراك ما هيه نارٌ حاميةٌ ﴾

(الآيات من ٦ ـ ١١ من سورة القارعة)

نلاحظ أن هذه الآيات لم تذكر لنا إلا فريقين .. الذين ثقلت موازينهم والذين خفت موازينهم ، ولكنها لم تذكر لنا ماذا سيحدث عندما تتساوى كفتا الميزان .

هؤلاء هم أهل الأعراف الذين لم تثقل موازينهم بالحسنات فيدخلون الجنة .. ولم تخف موازينهم فيدخلون النار .. عندما يرى أصحاب الأعراف أهل الجنة يلقون عليهم السلام .. وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ ونادَوْا أصحابَ الجنة أن سلامٌ عليكم لم يدخلوها وهُم يطمعون ﴾

(من الآية ٤٦ من سورة الأعراف)

أى أن الذين على الأعراف يطمعون فى دخول الجنة .. وسيدخلونها بعد فترة برحمة الله .

ولكن الأعراف هم بين الجنة والنار .. ولذلك فهم يرون الفريقين .. يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وإذا صُرفت أبصارُهم تلقاءَ أصحابِ النارِ ﴾

(من الآية ٤٧ من سورة الأعراف)

معنى صرفت أن المسألة ليست اختيارية .. وأنهم بطبيعتهم كانوا يتمنون أن تظل أبصارهم مع أصحاب الجنة ونعيمها .. ولكن الله سبحانه وتعالى صرف أبصارهم إلى أصحاب النار .. ليلفتهم إلى النعيم الذى هم فيه ولو أنهم على الأعراف لم يدخلوا الجنة .. لأن الذى ينجو من النار يكون قد فاز فوزا عظيما .. فإذا رأى أهل الأعراف أصحاب النار استغاثوا بالله ألا يجعلهم معهم وقالوا :

﴿ ربَّنا لا تجعلنا مع القومِ الظالمينَ ﴾

(من الآية ١٧ من سورة الأعراف)

ماذا يحدث بعد ذلك ؟ .. يعرف أصحاب الأعراف رجالا فى النار عاشوا فى الدنيا فى عزة ، وكفروا بالله واستهانوا بعذابه فينادونهم .. يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ ونَادى أصحابُ الأعرافِ رجالاً يعرفونهم بسيماهم . قالوا ما أغنى عنكمْ جمعُكم وما كنتُم تستكبرون ﴾

(من الآية ٤٨ من سورة الأعراف)

بمجرد أن صرف الله أبصار أهل الأعراف إلى النار عرفوا بالنظرة .. رجالا عاشوا وكانت لهم السيادة فى الأرض ولكنهم كفروا بالله فينادونهم .. والله يجعلهم يعرفونهم بمجرد رؤيتهم .. ينادونهم بأسمائهم ..

﴿ قالوا ما أغنى عنكمْ جمعُكم وما كنتُم تستكبرون ﴾

أى ما أغنت عنكم قوتكم التى استكبرتم بها فى الأرض .. أو جماعتكم التى كانت تحميكم وتنصركم .. أو شياطينكم أو ما كنتم تعبدون من دون الله .

والسؤال هنا كيف يتم الحوار ؟ .

والجواب أنه فى يوم القيامة سيتحدث كل البشر لغة واحدة يعلمها لهم الله .. ثم يقول لهم أهل الأعراف .. ها أنتم أولاء تعذبون فى النار ولا أحد يستطيع أن ينجيكم .. ثم يمضى أهل الأعراف فى توبيخ أصحاب النار فيقولون :

﴿ أهؤلاء الذين أقسمتُم لا ينالُهم الله برحمةٍ ﴾

(الآية ٤٩ من سورة الأعراف)

وهكذا يقول أهل الأعراف لأهل النار .. انظروا إلى المؤمنين الذين كنتم تسخرون منهم فى الدنيا وتهزءون بهم ، وتقولون : انهم على ضلال وأنكم على الحق .. أنظروا إليهم كيف ينعمون الآن مع أنكم كنتم تهزأون منهم فى الدنيا .. وتقولون أساطير الأولين وتحاولون أن تنالوا منهم ، وتؤكدون أنهم على ضلال .. هؤلاء الذين كانوا مستضعفين فى الدنيا ينعمون الآن فى الجنة .. وينعمون برضا الله ورحمته .

حينئذ .. وحين ينتهى هذا الحوار .. يعتبره الله سبحانه وتعالى حسنة لأهل الأعراف .. فيضعه فى ميزانهم .. فترجح كفة الحسنات .. ويقول لهم الحق سبحانه وتعالى :

﴿ ادخلُوا الجنةَ لا خوفٌ عليكم ولا أنتُم تحزنونَ ﴾

(من الآية ٤٩ من سورة الأعراف)

فيدخل أهل الأعراف الجنة ويصبحون من أهلها .

على أن حوارا آخر سيدور بين أصحاب الجنة وأصحاب النار .. فأهل الجنة يرون أهل النار وهم يعذبون .. وأهل النار يرون أهل الجنة وهم ينعمون .. فما هو هذا الحوار ؟

■ ■ ■

■ الفصل السابع ■

أهل الجنة وأهل النار

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لما خلق الله الجنة والنار أرسل جبريل إلى الجنة ، وقال : أنظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها ، فجاء جبريل الجنة ، ونظر إليها وإلى ما أعد الله لأهلها . ثم رجع إلى الله وقال : فوعزتك لايسمع بها أحد إلا دخلها . فأمر الله بها فحفت بالمكاره . ثم قال لجبريل : ارجع إليها فانظر ما أعددت حولها ، فرجع جبريل إليها ، فإذا هى قد حفت بالمكاره ، فعاد إلى الله وقال : وعزتك لقد حفت بالمكاره حتى إننى أحس أنه لن يدخلها أحد . فقال الله لجبريل : اذهب إلى النار ، فانظر إليها ، فذهب جبريل ، فإذا بالنار يركب بعضها بعضا ، ورجع جبريل إلى الله وقال : وعزتك لايسمع بها أحد

فيدخلها فأمر : الله ، فحفت النار بالشهوات ، ثم قال لجبريل : ارجع إليها فرجع جبريل . ثم عاد وقال : وعزتك لقد خشيت ألا ينجو منها أحد . لقد خشيت ألا يبقى أحد إلا دخلها .)

هذه هى قصة الجنة والنار اللتين سنتحدث عنهما فى هذا الفصل .. بعد أن بينا كيف سيمر خلق الله كلهم على الصراط .. فيسقط فى النار أهل النار .. فالمؤمنون على الصراط لهم نورهم الذى يضىء لهم الطريق ويريهم إياه حتى يمروا سالمين فتكون لهم النجاة من النار .. والكافر لايرى إلا ظلاما ويتخبط كالأعمى حتى يسقط فى النار ..

وكما أن أهل الجنة يذهبون إلى الجنة فى جماعات .. كذلك أهل النار يسقطون فى النار فى جماعات .. ويعطينا القرآن الكريم هذه الصورة فى قوله سبحان وتعالى :

﴿ كُلما أُلقى فيها فوجٌ سألهم خزنتُها ألم يأتكم نذيرٌ ﴾

« الآية ٨ من سورة الملك »

■ ■ ■

عصر الفتن

وإذا كنا قد أخترنا أن نبدأ الحديث عن أهل النار فاننا نريد بذلك أن يكون عبرة وعظة .. ونحن نعيش فى عصر قد ملأته الفتن ، وانتشر فيه الفساد .. وانصرف الناس عن الآخرة إلى الدنيا ، فحسبوا أنها الهدف وهى الحياة .. واستباحوا ماحرم الله ، ومضوا يستهينون بقيم الدين ومنهج السماء ...

لذلك فإننا نبدأ الحديث عن النار وأحوال أهلها .. عسى أن يكون فى ذلك عبرة فيعود الناس إلى الله ويتوبوا إليه إذا عرفوا ماسيلقاه العاصى والكافر فى الآخرة من عذاب .. وعذاب النار ليس فقط شىّ الوجوه والجلود .. ولكنه أيضا إذلال للكافر ففيه العذاب المادى وفيه العذاب النفسى ..

فكل من كان عظيما فى الدنيا تنحنى له الحياة .. ويأمر فيطاع .. يذل بأن يسحب على وجهه فى النار وأن تهان كرامته .. ويذوق من ألوان العذاب النفسى الكثير .. ويبحث عن الله ليستغفر أو يتوب إليه .. ولكن الله سبحانه وتعالى قد قضى على أهل النار أنهم لاينعمون برؤيته أبدا .. فيقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إنَّهم عن ربِّهم يومئذٍ لمحجوبون ﴾

« الآية ١٥ سورة المطففين »

وهذا عذاب مابعده عذاب .. لأن الانس بالله يوم القيامة نعيم مابعده نعيم .. والتوبة يوم القيامة مرفوضة .. ذلك أن التوبة مقبولة حتى تطلع الشمس من مغربها .. هذا ما أخبرنا به رسول الله صلى الله عليه وسلم .. وكيف تطلع الشمس من مغربها ؟ ..

ان الشمس تجرى لمستقر لها .. فإذا وصلت الى هذا المستقر فإن لكل فعل رد فعل .. فتعود الشمس مرة أخرى وحيتئذ تطلع من مغربها لأنها برد الفعل تجرى فى عكس الاتجاه .. وعلى أية حال فإن طلوع الشمس من مغربها يعنى حركة عكس الحركة التى تتم الآن .. وموعد هذا فى علم الله ، فلا أحد يستطيع أن يعرف ، أويتنبأ بمتى سيحدث ذلك .. والمهم دون محاولة الدخول فى تفاصيل .. أنه عندما يحدث ذلك ومن بداية هذه اللحظة لاتقبل توبة انس ولا جان ..

■ ■

معنى العذاب

ما معنى العذاب فى النار ؟ .. معناه حرمان من كل نعم الله التى أعطاها لنا فى الدنيا .. فلله نعم فى الدنيا يتمتع بها المؤمن والكافر .. ولكن فى الآخرة كل هذه النعم محرمة على الكافر .. ففى الدنيا يتمتع الناس بالحياة .. فالحياة فى الدنيا متعة يتمتع فيها المؤمن والكافر .. ولكن فى الآخرة لاتوجد حياة للكافر ويتمنى الكافر الموت ليرتاح من العذاب .. فأحيانا يكون الموت راحة .. وبالنسبة للمؤمن فإن الموت ينقله إلى خير مما هو فيه .. ولكن فى جهنم يتمنى أهلها الموت فلا يجيبهم الله إلى أمانيهم .. وفى ذلك يقول الحق :

﴿ فإنّ له جهنمَ لايموتُ فيها ولايحيا ﴾

« الآية ٧٤ فى سورة طه »

ومن نعم الحياة فى الدنيا الثياب .. والذين أعطاهم الله من نعيم الدنيا يرتدون فاخر الثياب .. ويباهون بها ويتفاخرون ، وهى تعطيهم المظهر الحسن وتعطيهم المقام الدنيوى .. وكلما كانت الثياب فاخرة أحس الناس بأن ذلك الذى يرتديها رجل عظيم .. فالثياب من زينة الحياة الدنيا ومن نعمها .. يأتى الله سبحانه وتعالى فى الآخرة فينزع هذه النعمة من الكفار ويلبسهم ثيابا من نار .. وفى ذلك يقول الحق :

﴿ فالذين كفرُوا قُطعت لهم ثيابٌ من نارٍ ﴾

(من الآية ١٩ سورة الحج)

أى أنهم محرومون من نعمة الثياب التى كانت مباحة لهم فى الدنيا .. فالثياب التى يرتديها الكفار والعاصون فى جهنم مصنوعة من نار لا تقيهم حرا ولا بردا بل ستكون ثيابهم مصدر عذاب مستمر لهم .. ومن نعم الدنيا التى يتمتع بها المؤمن والكافر نعمة الطعام والشراب .. الله سبحانه وتعالى جعل الطعام والشراب فيهما لذة بأن خلق أصنافا كثيرة يختار منها الناس ما يحبون ، وفضل بعضها على بعض فى الطعم والرائحة متاعا منه لخلقه .. كما أوجد الماء ليرتوى منه الناس .. ففى أيام الحر يشرب الناس الماء فيرويهم ويخفف عنهم شدة الحر .. الذى يسير فى الصحراء فى جو شديد الحرارة يعرف نعمة الله فى الماء الذى خلقه .. خصوصا إذا أصابه الظمأ ثم وصل إلى بئر أو مصدر للماء ، وشرب حتى ارتوى .. يحس بالنعيم الحقيقى عندما يرتوى .. ولكن هذه النعم كلها محرمة على أهل النار .. فإذا جاعوا وطلبوا الطعام أتاهم طعام مر المذاق .. إذا نزل فى حلوقهم أصابهم بألم وغصة .. فإذا وصل إلى المعدة غلى فيها غليانا فيصيبهم بألم شديد .

أى أن اللذة نزعت من الطعام ووضع بدلا منها العذاب .. فبعد أن كانوا يأكلون ويتمتعون أصبح الطعام

عذابا .. وبعد أن كان الطعام فى الدنيا إذا أكلوه يعطى أجسادهم الطاقة ويسكت آلام الجوع فيها .. فان طعام أهل النار لا يعطيهم طاقة ولا يسكن آلام الجوع .. فإذا طلبوا الماء جاءهم الماء يغلى ليقطع أمعاءهم .. والله يعطينا هذه الصورة وهو يتحدث عن شجرة الزقوم التى هى طعام أهل جهنم .. فى قوله تعالى :

﴿ إنَّها شجرةٌ تخرجُ فى أصلِ الجحيمِ ، طلعُها كأنه رؤوس الشياطينِ فانهم لآكلون منها فمالئون منها البطونَ . ثم إن لهم عليها لشَوبا من حميمٍ ﴾

(الآيات ٦٤، ٦٥، ٦٦، ٦٧ من سورة الصافات)

■ ■ ■

استمرار عذاب الكفار

والله سبحانه وتعالى من رحمته بالنسبة للحياة الدنيا قد جعل الألم محدودا .. فإذا تألم إنسان لمرض مثلا .. فإن هذا الألم يمكن أن يخفف بالدواء ويمكن أن يزول بالشفاء .. ويمكن أن ينتهى بالموت .. وإذا أصابه جرح أو حرق فإن ألمه يستمر بمقدار حياة الجلد .. لأن أعصاب الإحساس موجودة تحت الجلد مباشرة .. لذلك عندما يحقن الإنسان بدواء لا يحس إلا ونصل الحقنة يخترق الجلد .. أى أنها لحظة بسيطة من الألم ، ثم بعد ذلك فى اختراق نصل الحقنة للحم لا يكون هناك ألم .. ولكن فى الآخرة فإن هذه الرحمة تنزع عن العاصين والكافرين من أهل النار .. فكلما احترقت جلودهم ، بدلهم الله جلودا جديدة ليستمر الإحساس بالعذاب ولا يتوقف أبدا ولا يخفف عنهم .. ويقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إن الذين كفرُوا بآياتنا سوف نُصليهم نارًا . كلما نضجت جلودُهم بدَّلناهم جلودًا غيرَها ليذوقوا العذابَ :

(من الآية ٥٦ سورة النساء)

ومن نعم الله فى الدنيا أن الإنسان تكون له كرامة وتكون له شخصية .. الناس كل الناس لهم احترامهم من الآخرين .. وكبراء القوم فى الدنيا لهم احترام أكثر .. فهم

يمضون فى الحياة مرفوعى الرأس .. لهم الكبر ولا تلحق بهم إهانة وهم إذا تضايقوا من مكان .. استطاعوا أن يخرجوا منه إلى مكان آخر يجدون فيه الراحة .

فالإنسان فى الدنيا إذا تضايق من بلد استطاع أن يهاجر إلى بلد آخر .. وإذا تضايق من مكان يقيم فيه استطاع أن يذهب إلى مكان آخر فى نفس البلد أو نفس المدينة .. أو أن يعيش فى فندق بضعة أيام .. أو أن يقضى بعض الوقت فى حديقة .. المهم أنه يستطيع أن يحصل على الراحة النفسية التى يتمناها .. فإذا جاءت الآخرة وكان من أهل جهنم فإنه لا يستطيع أن يغادر مكانه رغم العذاب الشديد .. وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ ولهمْ مقامعُ من حديدٍ . كلما أرادُوا
أن يخرجوا منها من غمٍّ أعيدوا فيها
وذوقوا عذابَ الحريقِ ﴾

(الآيتان ٢١،٢٢ سورة الحج)

وهكذا يعيش أهل جهنم والعياذ بالله فى غم مستمر .. ويؤتى بالذين استكبروا فيسحبون على وجوههم ، ويصب فوق رأسهم عذاب الجحيم .. ويقول ملائكة جهنم لهم :

﴿ ذُق إنك أنت العزيزُ الكريمُ ﴾

« الآية ٤٩ سورة الدخان »

أى يا من كنت عزيزا فى الدنيا أكرمك الله بالعز وبالمال . فبدلا من أن تشكره على نعمته كفرت بهذه النعمة فخذ جزاءك .. لذلك يأتى الجزاء ليس فقط بالعذاب والايلام .. ولكن بالإهانة والذل ..

والمعروف أن العنق والوجه هما علامة كرامة الإنسان .. فالإنسان الذى يرفع رأسه عزيز كريم .. ولذلك عندما تريد أن تعبر أنك ستهين إنسانا تقول سأتى بأنفه إلى الأرض .. ويقال رغم أنفه .. أى رغم كبريائه ونفوذه فإننى سأفعل كذا وكذا .. والأنف هو أبرز مكان فى الوجه .. وتقول سأحنى رأسه فى التراب .. كل هذا من علامات الذل والإهانة ..

■ ■ ■

سحب الكفار بالسلاسل

يأتى الله سبحانه وتعالى بالكافرين الذين كانت رؤوسهم مرفوعة فى كبرياء الكفر لتسحب أعناقهم بالسلاسل حتى تصل رؤوسهم إلى الأرض .. فى جهنم علامة على الذلة والإهانة ، وهذا نوع من العذاب النفسى .. وفى ذلك يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ إذ الأغلالُ فى أعناقِهم والسلاسلُ يُسحبون ﴾

« الآية ٧١ سورة غافر »

على أن هناك من يتساءل إذا كان الإنسان لا يملك سيطرة ولا إرادة على جسده ، فلماذا هذه السلاسل ؟ .. بينما الأمر يصدر للجسد فيطيع دون قدرة على العصيان .. نقول انها زيادة فى الإذلال أن يتم السحب بهذه السلاسل .. فلو أنه تم بدونها لكان ذلك أخف من الناحية النفسية ، ولكن وجود السلاسل يزيد من الذل والمهانة التى يتعرض لها أولئك الذين كفروا فيكون هذا التعرض أمام أهل النار وأهل الجنة .. لأن أهل الجنة يرون أهل النار وهم يعذبون .. وأهل النار يرون أهل الجنة وهم ينعمون وهذا زيادة فى الألم النفسى لأهل النار .. فهم يرون نعم الجنة فيعرفون انهم كانوا من الممكن أن يصبحوا من أهلها .. لو أنهم أطاعوا الله واتبعوا منهجه .. أما أهل الجنة فرؤيتهم لأهل النار زيادة فى

تنعيمهم وهم يرون الهول الأعظم الذى كانوا سيتعرضون له لولا رحمة الله وفضله وهداه ..

على أن العذاب لاينتهى عند هذه المشاهد ، ولا عندما يصيح أهل النار طالبين من كبير ملائكة النار أن يطلب من الله أن يميتهم .. وفى ذلك يقول الحق :

﴿ ونادَوا يا مالكُ ليقض علينا ربُّك قال إنكم ماكثونَ ﴾

« الآية ٧٧ سورة الزخرف »

ولابد أن نتنبه إلى أنهم لم يقولوا ليقض بيننا ربك .. بل قالوا ليقض علينا أى حتى نموت ونرتاح من هذا العذاب فيقول لهم مالك لقد قضى الله الا يقضى عليكم لترتاحوا بل أنتم ماكثون فى النار .. ويعيش أهل النار فى غيظ أحمق وهم يعذبون فكل منهم عدو للآخر .. فيطلب المستضعفون منهم الذين كانوا يتبعون سادتهم وكبراءهم يطلبون من الله سبحانه وتعالى أن يضاعف لهم العذاب ويقولون :

﴿ ربَّنا آتهم ضعفينِ من العذابِ والْعنهم لعنًا كبيرًا ﴾

« الآية ٦٨ سورة الأحزاب »

وهكذا تكون صدورهم تغلى تماما كبطونهم وجلودهم .. أما أولئك فكان لهم قرناء السوء فى الدنيا من الجن والإنس يزينون لهم المعصية ويدفعونهم إليها .. فإنهم يطلبون

من الله سبحانه وتعالى أن يريهم هؤلاء القرناء ويقولون :

﴿ ربنا أرنا الّذَيْنِ أضلّانا من الجنِّ والإنس نجعلْهما تحت أقدامِنا ليكونَا من الأسفلين ﴾

« الآية ٢٩ من سورة فصلت »

على أننا لابد أن نلتفت إلى أن هناك ألوانا كثيرة من العذاب فى جهنم .. فهناك عذاب عام يشمل الجميع وهو النار .. وبجانب هذا العذاب هناك ألوان من العذاب الخاص الذى يتناسب مع جريمة كل واحد من أهل النار ..

وقد روى رسول الله صلى الله عليه وسلم لنا ألوانا من هذا العذاب عندما أسرى به فى ليلة الإسراء والمعراج .. فهناك الذين تقرض شفاههم بمقارض من حديد وهم ألسنة الفتنة .. وهناك الذين سيأكلون لحوما منتنة . إنهم كانوا يغتابون الناس .. وهناك الذين سيسبحون فى برك من الدم .. وهناك الزناة الذين تحرق النار فروجهم .. كل هذه الألوان من العذاب هى أنواع خاصة من العذاب تتم فى جهنم .. فكأنما درجات العذاب تتفاوت .. كل حسب بشاعة عمله فى الدنيا .. ولكنهم جميعا سيعذبون بالنار ، وجميعا سيدخلون جهنم .. ولكل منهم زبانية لديهم ألوان من العذاب لاتعد ولا تحصى .. كل هؤلاء يتم تعذيبهم فى النار التى تتميز من الغيظ ..

ذلك أننا لابد أن نعلم أن كل مخلوق لله مؤتمر بأمر الله ..

عليه أن يتبع المنهج .. فإن لم يكن له اختيار نفذ اوامر الله بلا اختيار .. ولذلك عندما قال الحق للسموات والأرض :

﴿ائْتيا طوعًا أو كرهًا قالتا أتينا طائعينَ﴾

« من الآية ١١ سورة فصلت »

أى لا نريد اختيارا نريد أن نبقى مسخرين .. أما الإنسان فقد اختار أن يكون مختارا فى تطبيق المنهج .. وكل ملتزم بمنهج الله فى الدنيا يكره غير الملتزم ..

ولذلك عندما تكلمنا عن ميلاد رسول الله صلى الله عليه وسلم قلنا أن الكون قد فرح بمولده .. الجماد والنبات والحيوان والمؤمن من الإنسان .. ذلك لأن منهج رسول الله صلى عليه وسلم سيعيد انسجام الإنسان مع الوجود كله فى طاعة الله .. والذى يجعل هذا مبتعدا عن اذهاننا وقد لايفهمه البعض هو اننا لانعتقد انه لايوجد احساس فى هذا الكون إلا للإنسان .. ولاحياة فى هذا الكون إلا حياة الإنسان .. ولا إرادة فى هذا الكون إلا إرادة الإنسان .. ولا يصل إلى أذهاننا أن تلك الأشياء التى نقول عنها إنها جماد اصم لها كل هذه المقومات ..

وإذا كانت هذه هى الحقيقة .. لأن الحصى يسبح .. والجبال تسبح .. والأرض تسبح .. إذن كل هذا الكون الطائع يملؤه الغيظ من الإنسان الكافر وهو يريد أن ينتقم منه .. ولذلك فإن النار وهى خلق مسبح لله مملوءة غيظا من هؤلاء الكافرين وتتمنى لو يعذبون بها .. ولذلك إذا قال

الحق سبحانه وتعالى :

﴿ تتميزُ من الغيظِ ﴾ .

فهذا تعبير عما تحس به النار تجاه الكفار ..
وإذا قال الحق سبحانه وتعالى :

﴿ يومَ نقول لجهنمَ هل امتلأتِ وتقولُ هل من مزيدٍ ﴾

فمعنى ذلك أنها سعيدة فى أداء مهمتها وهى إحراق الكافرين وتعذيبهم . وهذا دليل على أن كل شىء مقصور لما خلقه الله له يحب مهمته .. ومادام يحب مهمته يكون سعيدا وهو يؤديها .. وفى هذا نتأمل قول الحق سبحانه وتعالى فى آل فرعون بعد إغراقهم :

﴿ كمْ تركوا من جناتٍ وعيونٍ وزروعٍ ومقامٍ كريمٍ ونعمة كانوا فيها فاكهين كذلك وأورثناها قومًا آخرين فما بكتْ عليهمْ السماءُ والأرضُ وما كانوا منظرين ﴾

« الآيات من ٢٥ ـ ٢٩ من سورة الدخان »

كأن السماء والأرض التى نقول عنها جماد لها انفعال وانفعال راق وهو العاطفة التى ينشأ عنها الحزن والبكاء .

الأمـــل الكـــاذب

ومن عذاب أهل النار أنهم يعطون الأمل الكاذب .. ذلك أنه أكثر إيلاما للنفس أن تأمل فى شيء ثم تجده لايتحقق .. ولذلك تأتينا الصورة فى القرآن الكريم فى قوله تعالى :

﴿ وإن يَستغيثوا يُغاثوا ﴾

« من الآية ٢٩ سورة الكهف »

حين يحس أهل النار بالعطش الشديد يستغيثون بالله طالبين الماء يقال لهم ستغاثون فيفرحون ويستبشرون ويعتقدون أن الله سيعطيهم الماء الذى يخفف عنهم العذاب .. فإذا جاء الماء كانوا فرحين مسرورين .. فإذا بهم يجدونه ماء يغلى .. ومن شدة غليانه يحرق وجوههم قبل أن يصل إلى أمعائهم فيقطعها .. وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وإن يستغيثوا يُغاثوا بماءٍ كالمهلِ يشْوى الوجوهَ . ﴾

« الآية ٢٩ سورة الكهف »

تماما حين تريد أن تعذب سجينا .. يطلب منك الماء من شدة العطش فتأتى له بكوب من الماء .. وقبل أن تصل إليها يده تلقى مافى الكوب على الأرض .. هذا نوع من التعذيب .

كذلك هناك تعذيب آخر حينما يرى أهل النار الوهج الذى يخرج منها فيحسبونه ظلا .. فيطلبون أن يذهبوا إليه فيؤذن لهم فينطلقوا .. ومعنى الإنطلاق هنا الجرى بلهفة .. وعندما يصلون إليه لايجدونه ظلا .. فلا هو يحميهم من اللهب .. ولا هو يقدم أية حماية من العذاب .. وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ انطلقُوا إلى ظلٍّ ذى ثلاثِ شعبٍ
لاظليلٍ ولا يغنى من اللهبِ ﴾

« الايتان ٣٠ ، ٣١ من سورة المرسلات »

ونحن نفهم أن الظل هو الذى يقى الإنسان من الحر الشديد .. والإنسان حين يجلس فى الظل يحس بنسمة هواء لطيفة .. ولكن هذا ليس ظلا .. وقوله تعالى :

﴿ ذى ثلاثِ شعبٍ ﴾

حين يقبل الإنسان على شىء يكون المواجه له ثلاثة اتجاهات .. هى ما هو أمامه .. وما هو عن يمينه وما هو عن شماله .

فكأن هذه الاتجاهات الثلاثة التى يتجهون إليها ليس فيها أى نوع من الظل .. والشىء الذى نعرف أنه مظهر من مظاهر رحمة الله فى الدنيا .. يجده أهل النار مظهرا من مظاهر نقمة الله وعذابه ..

ثم نأتى إلى عذاب آخر فى قوله تعالى :

﴿ لهمْ من جهنمَ مهادٌ ومن فوقهمْ غواشٍ ﴾

« الآية ٤١ من سورة الأعراف »

والمهاد هو الفراش والغواش هو الغطاء إذن هم سيفترشون جهنم وستكون لهم فراشا وأكثر من ذلك ستكون لهم غطاء .. أى أن النار ستكون من فوقهم ومن تحتهم والعذاب محيط بهم من كل جانب .. فلايوجد شبر من أجسادهم لايعذب ..

فلا نقول مثلا أن النار ستكون تحتهم تكوى ظهورهم بينما جباههم وجنوبهم مستريحة من العذاب .. بل العذاب يأتيهم من كل جانب .. لذلك يريد الله ان يرينا قسوة العذاب فى الآخرة .. وتكتمل الصورة بقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ لهمْ من فوقهم ظللٌ من النارِ ومن تحتِهم ظللٌ ﴾

« الآية ١٧ من سورة الزمر »

وبذلك يعطينا الله سبحانه وتعالى كل أبعاد جسم الإنسان .. فأبعاد الجسم ستة .. هى الأمام والخلف واليمين والشمال وفوق وتحت .. فكأنما الجهات الست لجسم الإنسان محاطة بعذاب النار .. وذلك مصداقا لقوله تعالى :

﴿ إنا أعتدنا للظالمين نارًا أحاط بهم سرادقُها ﴾

« الآية ٢٩ من سورة الكهف »

والسرادق هو الخيمة المحيطة بالإنسان من كل مكان .. فكأن عذاب النار فى جهنم ميحط بالكافرين والعصاة من كل مكان .. وحين يحيط العذاب بأهل النار يطلبون فرصة أخرى .. يطلبون أن يعودوا إلى الدنيا .. وفى ذلك يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ ولو ترى إذ وُقفوا على النارِ فقالوا ياليتنا نُرد ولا نكذب بآياتِ ربِّنا ونكون من المؤمنين ﴾

« الآية ٢٧ من سورة الأنعام »

أى أنهم طلبوا أن يعودوا إلى الدنيا مرة أخرى حتى يعملوا الصالحات ويطيعوا الله فيما أمرهم به .. ولكن الله سبحانه وتعالى يعلم أنهم إذا عادوا مرة أخرى فسيكفرون كما كفروا فى المرة الأولى .. ذلك أنهم إذا عادوا للدنيا عاد لهم أختيارهم ، وعادت الشياطين لتغويهم ، وغرتهم سيطرتهم على جوارحهم .. وظنوا أنهم قادرون على أن يفلتوا من عذاب الله لذلك سيعودون إلى المعصية ..

■ ■ ■

أول الداخلين الجنة

ولكن كيف سيخرج العصاة من جهنم ؟ .. كيف سيزحزحون من العذاب ؟ .. إذا دخل أهل الجنة الجنة ودخل أهل النار النار .. يقوم رسول الله والمؤمنون متجهين إلى الله ويقولون : ربنا أخواننا فى الدنيا قالوا لا إله إلا الله كانوا يصومون معنا ويصلون فأدخلتهم النار بذنوبهم ، فيقول الله : اذهبوا فأخرجوا من عرفتم منهم فيأتوهم فيعرفونهم بصورهم فيخرجونهم فيقولون : أخرجنا من أمرتنا وما بقى فيها أحد نعرفه فيقول الله أخرجوا من كان فى قلبه وزن دينار من إيمان فيخرجونهم . فيقول أخرجوا من كان فى قلبه مثقال حبة من خردل فيخرجونهم فيلقون فى نهر الحياة فينبتون من جديد .

وقد أنبأنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن آخر من يخرج من النار ويدخل الجنة فقال : آخر من يخرج من النار ويدخل الجنة رجل يخرج من النار حبوا يمشى مرة ويكبو مرة وتسفعه النار مرة حتى إذا ماجاوزها قال تبارك الذى نجانى منك . لقد أعطانى الله شيئا ما أعطاه أحدا من الأولين والآخرين .. ويظل يتنقل من منزلة إلى منزلة حتى يكون آخر أهل الجنة دخولا ..

أما أول أهل الجنة دخولا فهم محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم والصالحون من أمته .. لأنهم جاءوا على موعد فتنة فى الدنيا .. جاءوا فى وقت تشتد فيه الفتن وجاءوا فى وقت امتلأت فيه الدنيا بالزخارف والقيافة تقوم عليهم

بعد ما تأخذ الأرض زخرفها .. فالذين يتبعون رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذه الظروف يكونون من أهل الجنة .. وهذا اكرام لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأمته ..

على اننا قبل أن ننهى هذا الكتاب .. لابد أن نتحدث عن أهل الجنة .. ولا أحد يستطيع أن يصف ذلك النعيم الذى سيعيش فيه أهل الجنة .. لأن الجنة فيها كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .. فكل شىء فيها بقدرات الله سبحانه وتعالى ..

★ ★ ★

واللغة عادة لابد أن يسبقها المعنى .. فلا توجد كلمة لشىء لا وجود له .. لأنه لابد ان تكون الصورة الذهنية موجودة أولا .. ثم بعد ذلك توضع لها الكلمة .. وكل المخترعات العلمية الحديثة لم تكن موجودة فى أى لغة من لغات العالم .. ولكن عندما وجد الاختراع اجتمع علماء اللغة ووضعوا له الاسم ..

وحين تريد أن تعلم انسانا لفظا جديدا لشىء لم يره .. فلابد أن تشبهه له لكى يفهم فتقول انه مثل الكرة أو مثل الإسطوانة أو مثل الصندوق .. فما دام الشىء مجهولا فلابد أن تشبهه بشىء معلوم حتى يستطيع العقل أن يستوعبه .. فإذا لم تشبهه بشىء معلوم عجز العقل عن فهمه .. ونعيم الجنة مجهول لدينا .. فنحن لا نعرف عنه

شيئا .. ذلك أنه نعيم يفوق قدراتنا وتصوراتنا .. فهو بقدرة الله سبحانه وتعالى ..

ولذلك عندما أراد الله سبحانه وتعالى أن يحدثنا عن الجنة .. ضرب لنا الأمثال بما هو موجود فى الدنيا .. هذه الأمثال هى للتقريب فقط .. ولكنها لا تعطينا الصورة الحقيقية .. ولذلك نجد القرآن الكريم دائما يستخدم الحق جل جلاله كلمة مثل عندما يتحدث عن الجنة .. فيقول سبحانه وتعالى :

﴿ مثلُ الجنةِ ﴾

أى أنها ليست هى ولكنها مجرد مثل يضرب لتقريب المعنى .. ولذلك فكل ماذكر فى القرآن الكريم عن الجنة لايمثل حقيقة نعيمها .. لان نعيمها فوق قدرات العقول البشرية ولكنه يقرب لنا هذا المعنى .. دون أن يكون هو الحقيقة .. ولذلك ونحن نقرأ آيات الجنة فى القرآن الكريم لابد أن نعرف أن ما سنجده فيها هو أكبر كثيرا مما ذكر .

يقول الله سبحانه وتعالى فى وصف الذين سيدخلون الجنة :

﴿ أولئكَ أصحابُ الجنةِ ﴾

« من الآية ٤٢ من سورة الأعراف »

ومعنى أصحاب أنهم لا يفارقونها تماما كما يحب الإنسان صاحبه .. فالجنة تطلبهم كما يطلبونها وفيها نعم الخلود والنعمة فيها لاتزول عن الإنسان ولا تفارقه

ولا تبتعد عنه .. ولا يفارقها هو بالموت فتزول عنه .. وهى حياة ليس فيها أغيار .. أى لاتكون فيها صحيحا فتمرض .. ولا غنيا فتفتقر .. فهذه الأغيار موجودة فى الدنيا حتى يلفتنا الله إلى أن النعمة منه فنشكره ولاننسبها إلى نفسنا وقدراتنا وعقولنا .. ونعم الجنة من الغزارة بحيث يأخذ الإنسان منها حاجته وما يزيد عن هذه الحاجة .. ولذلك فإنه إذا تمنى الإنسان شيئا فى الجنة وجده أمامه بمجرد أن يرد على خاطره .. فلا يوجد غل ولا حقد بين أهل الجنة .. لأن كل ما يتمناه أى واحد منهم يجده أمامه .. ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ ونزعْنا مافى صدورِهم من غلٍّ ﴾

« من الآية ٤٣ من سورة الأعراف »

أى أنهم متى دخلوا الجنة نعموا جميعا بأكثر مما كانوا يتوقعون :

والصراع فى الدنيا والخلاف والغل يتم على أساس أن كل واحد يريد أن يستأثر بالنعم .. فهذا معه الحكم وهذا يريد أن يأخذه منه .. وهذا معه المال وهذا يريد أن ينتزع منه المال .. هذا التنافس على النعم لا وجود له فى الجنة .. لأن نعم الله تزيد عن حاجة عباده وكلما تمنوا شيئا وجدوه .. كما أن الله سبحانه وتعالى يطهر نفوس أهل الجنة .. فإذا كان لك زوجة صالحة وكانت لاتعجبك منها أشياء طهرها الله سبحانه وتعالى مما لايعجبك .. ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ لهمْ فيها أزواجٌ مطهرةٌ ﴾

« من الآية ٥٧ من سورة النساء »

والزوجة الصالحة التى كان لايعجبها فى زوجها شىء يطهره الله منه ..

ولكن لماذا قال الحق سبحانه وتعالى أزواج مطهرة ولم يقل أبناء وبنات مطهرون .. لأن الزوج والزوجة هما عماد الأسرة .. فأن صلحا صلح الأولاد .

وصف الجنة

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى فى وصف الجنة :

﴿ تجرى من تحتِهم الأنهارُ ﴾

« من الآية ٤٣ من سورة الأعراف »

ويقول سبحانه :

﴿ تجرى تحتها الأنهار ﴾

« من الآية ١٠٠ من سورة التوبة »

فما هو الفرق ؟ .. نقول ان هناك فرقا بين ﴿ تجرى من تحتهم الأنهار ﴾ و ﴿ تجرى تحتها ﴾ نقول ان النهر يجرى من تحتى أى أن الماء يمر من تحتى .. ولكن منبعه ليس من عندى .. فقد يكون منبعه من مكان آخر ولكن ماءه يجرى تحتى .. ولكن القول ﴿ من تحتهم ﴾ . .

أى أن الماء ينبع من تحتى ولا يتوقف عنى أبدا .. وأنهار الجنة بقدرة الله سبحانه وتعالى هى بلا شواطىء .. يجرى الماء هكذا بقدرة الله حافظا نفسه ..

وفى أنهار الدنيا لاتجد نهرا إلا وله شاطئان .. وهذان الشاطئان يمكنان بعض الناس من التحكم فى مياه النهر لمنعها من الآخرين .. ولكن بطلاقة قدرة الله فى الخلق لاتوجد شواطىء لانهار الجنة فلا أحد يستطيع أن يمنعها عن أحد .. والله سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا إلى أن أنهار الجنة تجرى من تحت قصور المؤمنين وتجرى تحتها .. أى أن الماء يأتيهم من أماكن أخرى وينبع أيضا من نفس المكان الذى سيخلدون فيه فى الجنة وذلك زيادة فى النعيم .. وحينئذ يقول أهل الجنة :

﴿ الحمدُ لله الذى هدانا لهذا وما كنَّا لنهتدى لولا أن هدانا الله ﴾

« الآية ٤٣ من سورة الأعراف »

والحمد يحمل هنا الحمد على الحب والمودة بين أهل الجنة جميعا .. ونحن نقول الحمد لله فى الدنيا شكرا لله على نعمه .. ونقولها فى الآخرة لأن الشكر سيكون أكبر .. لأن الأشياء ستأتينا بمجرد أن ترد على خاطرنا .. ولأن نعم الله لاتعد ولاتحصى .. والحمد لله هنا أنه قد أنزل إلينا المنهج الذى عملنا به لنصل إلى هذا النعيم .. والذى أعاننا على طريق الإيمان .. والحمد لله الذى أرسل لنا رسله لتدلنا على الطريق .

ويدور حوار بين أهل الجنة وأهل النار .. ولقد نبأنا الله سبحانه وتعالى لذلك فى قوله تعالى :

﴿ ونادَى أصحابُ الجنةِ أصحابَ النارِ
أن قد وجدنَا ما وعدنا ربنا حقًّا ﴾

« الآية ٤٤ من سورة الأعراف »

ومعنى هذا أن أهل الجنة وأهل النار سيرون بعضهم البعض وبينهما حجاب أو حاجز يمنع الاختلاط . فلا يصل لهيب النار إلى الجنة .. ولايصل نعيم الجنة إلى النار .. ولكن هؤلاء وهؤلاء يرون بعضهم البعض ويدور بينهم حوار .. والصالحون ينعمون .. والكافرون والعصاة يعذبون .. كل على مرأى من الآخر .

ويعطينا الله سبحانه وتعالى صورا للنعيم فى الجنة بالنسبة لكل النعم .. الطعام والشراب والملبس والنعيم النفسى الذى سيحدث .. فكما أن الكفار والعصاة سيعذبون عذابا بدنيا ونفسيا فى النار .. فإن المؤمنين سينعمون نعيما بدنيا ونفسيا .. فيقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وجزاهُم بما صَبروا جنةً وحريرا
متَّكئين فيها على الأرائكِ لايرونَ فيها
شمسًا ولا زمهريرًا ، ودانية عليهم
ظلالُها وذُللت قطوفُها تذليلا ﴾

« الآيات من ١٢ ـ ١٤ من سورة الإنسان »

★ ★ ★

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وإذا رأيتَ ثَمَّ رأيتَ نعيما وملكًا كبيرًا . عاليَهم ثيابُ سندسٍ خضرٍ وإستبرقٍ وحُلوا أساورَ من فضةٍ ، وسقاهم ربُّهم شرابًا طهورا ﴾

« الآيتان : ٢٠ ، ٢١ من سورة الإنسان »

هذا بعض النعيم المادى .. أما النعيم النفسى فكفى به انهم يرون الله ويأنسون بحديثه جل جلاله .. على أننا مهما قلنا بالنسبة لنعيم الجنة .. فلن نصل إلى تصوير دقيق له .. لأن كل ما يخطر وما لايخطر على قلوب البشر موجود ومتوافر وأكثر منه موجود ومتوافر .. وان لحظة واحدة فى الجنة تساوى الدنيا وما فيها .

وإلى هنا نكون قد وصلنا إلى نهاية الجزء الثالث عن مشاهد يوم القيامة .. ذلك اليوم العظيم الذى سنراه جميعا ونشهده .. وندعو الله سبحانه وتعالى أن نكون فى هذا اليوم من أهل الجنة .. وعسى أن تكون الصورة قد اقتربت من أذهاننا .. وندعو الله أن يكون هذا الكتاب هاديا لكل من يقرؤه .. انه سميع مجيب الدعاء ..

■ ■ ■

رقم الايداع بدار الكتب ٨٩/٣٠٥٨

الترقيم الدولى ٧ - ٣٠٤ - ١٢٤ - ٩٧٧ ISBN

شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس

أيام الأسبوع	تواريخ [illegible]	تواريخ [illegible]	مغرب ق	مغرب ت	عشاء ق	عشاء ت	سحور ق	سحور ت	إمساك ق	إمساك ت	فجر ق	فجر ت	ظهر ق	ظهر ت	عصر ق	عصر ت
الجمعة	١	٧	١٧	٦	٣٦	٧	٤٨	١	٤٨	٣	٠٨	٤	٥٧	١١	٣٠	٣
السبت	٢	٨	١٧		٣٧		٤٧		٤٧		٠٧		٥٧		٣٠	
الأحد	٣	٩	١٨		٣٧		٤٦		٤٦		٠٦		٥٧		٣٠	
الإثنين	٤	١٠	١٨		٣٨		٤٤		٤٤		٠٤		٥٦		٣٠	
الثلاثاء	٥	١١	١٩		٣٩		٤٣		٤٣		٠٣		٥٦		٣٠	
الأربعاء	٦	١٢	٢٠		٤٠		٤٢		٤٢		٠٢		٥٦		٣٠	
الخميس	٧	١٣	٢٠		٤١		٤٠		٤٠		٠٠	٤	٥٥		٢٩	
الجمعة	٨	١٤	٢١		٤١		٣٩		٣٩		٥٩	٣	٥٥		٢٩	
السبت	٩	١٥	٢٢		٤٢		٣٨		٣٨		٥٨		٥٥		٢٩	
الأحد	١٠	١٦	٢٢		٤٣		٣٦		٣٦		٥٦		٥٥		٢٩	
الإثنين	١١	١٧	٢٣		٤٤		٣٥		٣٥		٥٥		٥٤		٢٩	
الثلاثاء	١٢	١٨	٢٣		٤٥		٣٤		٣٤		٥٤		٥٤		٢٩	
الأربعاء	١٣	١٩	٢٤		٤٥		٣٢		٣٢		٥٢		٥٤		٢٩	
الخميس	١٤	٢٠	٢٥		٤٦		٣١		٣١		٥١		٥٤		٢٩	
الجمعة	١٥	٢١	٢٥		٤٧		٣٠		٣٠		٥٠		٥٤		٢٩	

وبينات من الهدى والفرقان فمن شهد منكم الشهر فليصمه

أيام الأسبوع	تواريخ [illegible]	تواريخ [illegible]	مغرب ق	مغرب ت	عشاء ق	عشاء ت	سحور ق	سحور ت	إمساك ق	إمساك ت	فجر ق	فجر ت	ظهر ق	ظهر ت	عصر ق	عصر ت
السبت	١٦	٢٢	٢٦	٦	٤٨	٧	٢٨	١	٢٨	٢	٤٨	٢	٥٢	١١	٢٩	٢
الأحد	١٧	٢٣	٢٧		٤٩		٢٧		٢٧		٤٧		٥٣		٢٩	
الإثنين	١٨	٢٤	٢٧		٥٠		٢٦		٢٦		٤٦		٥٢		٢٩	
الثلاثاء	١٩	٢٥	٢٨		٥١		٢٥		٢٥		٤٥		٥٣		٢٩	
الأربعاء	٢٠	٢٦	٢٨		٥١		٢٣		٢٣		٤٣		٥٣		٢٩	
الخميس	٢١	٢٧	٢٩		٥٢		٢٢		٢٢		٤٢		٥٣		٢٩	
الجمعة	٢٢	٢٨	٣٠		٥٣		٢١		٢١		٤١		٥٣		٢٩	
السبت	٢٣	٢٩	٣٠		٥٤		٢٠		٢٠		٤٠		٥٢		٢٩	
الأحد	٢٤	٣٠	٣١		٥٥		١٨		١٨		٣٨		٥٢		٢٩	
الإثنين	٢٥	[illegible]	٣٢		٥٦		١٧		١٧		٣٧		٥٢		٢٩	
الثلاثاء	٢٦	٢	٣٢		٥٧		١٦		١٦		٣٦		٥٢		٢٩	
الأربعاء	٢٧	٣	٣٣		٥٨		١٥		١٥		٣٥		٥٢		٢٩	
الخميس	٢٨	٤	٣٤		٥٨		١٤		١٤		٣٤		٥٢		٢٩	
الجمعة	٢٩	٥	٣٤		٥٩		١٣		١٣		٣٣		٥٢		٢٩	

مع تحيات أسواق الشريف

مفتاح أناقة العصر
من
شورت
short
للمصنوعات الجلدية
استعداد تام للتصدير للدول العربية والأوربية

يتقدم
بخالص التهانى للأمة الإسلامية
بحلول شهر رمضان المعظم

المصنع : ٥٤٥ ش بور سعيد
ـ القاهرة ت: ٩١٠٥١٢

معجزة القرآن

محمد متولى الشعراوى

١٠٠ قرش

80-961133

Sha'rāwī, Muḥammad Mutawallī.
(Mu'jizat al-Qur'ān)
معجزة القرآن / محمد متولي الشعراوي. -- القاهرة : أخبار اليوم، <1989>-1980.

v. <11> ; 20 cm. --
(كتاب اليوم ؛ العدد 293 (رمضان 1409 هـ/ابريل (نيسان) 1989 م))
ISBN 977-124-304-7 (juz' 11) : £E1.00
(juz' 11)
Egy-Islam.

80-961133

Sha‘rāwī, Muḥammad Mutawallī.
(Mu‘jizat al-Qur’ān)
معجزة القرآن / محمد متولى
الشعراوى. -- القاهرة : أخبار اليوم،
.1980-<1989>
v. <11> ; 20 cm. --
(كتاب اليوم ؛ العدد 293 (رمضان 1409
هـ/ابريل (نيسان) 1989 م))
ISBN 977-124-304-7 (juz’ 11) : £E1.00
(juz’ 11)
Egy-Islam.

BP
130
.7
S529
JUZ'11